على طريق الهجرة

دراسة علمية

تأليف

الكاتب الكبير/ حسن فتح الباب

تقديم

فضيلة الدكتور/ محمد عبد الرحمن بيصار

شيخ الأزهر الشريف الأسبق

ت: ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م

الجزء الأول - عدد المحرم ١٤٤١ هـ



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م



تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين إمام المجاهدين، وقدوة المتقين والصابرين سيدنا محمد النبي المصطفى الكريم.

وبعد،،

فإن هجـرة المختار -صلوات الله وسـلامه عليه- ما تزال حديـث الدنيا منذ وقعت إلى يومنا الحاضر، وعلى مر الدهور وكر العصور سـتبقى الدليل الناطق والبرهان السـاطع على عبقرية سيدنا محمد ﷺ وحسن تدبيره وإحكام أموره، وأنه – وهـو الأمـي – كان يضع من الخطـط والتنظيمات ما يكفل لدعوته النصر والبقاء والخلود.

ولقد ظهـرت في الهجرة كتـب ومؤلفات كثيـرة لمؤلِّفين مسلمين وغير مسلمين، منصفين وغير منصفين، وقد عالجت هـذه الكتب وتلك المؤلفات جوانب شـتى من حياة الرسـول وجهاده، لكـن الجوانب التي جدَّت في دنيـا الناس موازينها وخضعـت لمصطلحات جديدة لم تنـل من عناية الباحثين ما ينبغي لها.

والكتـاب الذي نقدمه لقـراء التراث الإسـلامي الحضاري بحث جديد في نوعه ومادته، يضع بين يدي القارئ الأنموذج

الحي المدعّم بالبراهيـن والأدلة لتلك العقلية الماهرة المدبِّرة التــي تحســن التخطيط والتقســيم، وتتقن التنظيــم وترتيب الوظائف واختيار القادة والأكفاء من الرجال.

وهو بحث يكاد يكون فريدًا ممتازًا ومردُّ ذلك إلى أمرين:

أولهمــا: أن الموضــوع - ككل - لــم يتناولــه فــي صورة مســتوعبة كاملة كتاب آخر، وكل ما ظهر في المكتبة العربية إنما هو بحوث متفرقة وشذرات في كتب شتى.

وثانيهمــا: درايــة المؤلــف بفنــون التخطيــط والإدارة والتنظيــم، وخبرته في هذا المجال بالإضافة إلى صدق إيمانه وثبات يقينه.

كل ذلــك جلَّى الكثير من المواقف، وكشــف بحســن تأتيه وإدراكــه الكثير من الجوانب التي التقت في قمتها في النظام المحمدي والإعداد النبوي لحادث الهجرة الجليل.

وليس الأستاذ المؤلف غريبًا على القراء فهو كاتب إسلامي جدير بالتقدير والقراءة.

نسأل الله أن ينفع الناس بما نقدمه لهم، إنه على كل شيء قدير وهو الهادي إلى سواء السبيل.

فضيلة الإمام الأكبر

أ.د. محمد عبد الرحمن بيصار

شيخ الأزهر الشريف - سابقًا

مقدمة

لا يســع الباحث المنصفَ حين يتناول بالدراسة والتحليل موضــوع الهجــرة النبوية، تلك المســيرة الخالــدة في تاريخ الإســلام بصفة خاصة والتاريخ الإنســاني بصفة عامة، إلا أن ينعطــف في إعــزاز وتقدير إلى هذه الأعمــال الثقافية القيمة التي فاضت بها قرائح - المفكرين والمشرّعين والأدباء الذين اســتلهموا من الهجرة أروع المُثُل والقيم، ونسجوا في ضوئها أقوم الشــرائع، وتمثلوا في صاحبها - عليه الصلاة والســلام - أعظــم مِنَح الخالــق القدير وأجل نعمه على الإنســان فكرًا وسلوكًا وعملًا.

ولقــد اختطَّ هــؤلاء المفكِّــرون والكتاب كلٌّ منهــم منهجًا وأســلوبًا فــي البحــث يمتــاز به عــن غيــره ممن كتبــوا في الســيرة، وكان مــردُّ ذلك إلــى اختلافهم في طرائــق التفكير والبحث والتعبير تبعًا لتباين مواطنهم وتنشــئتهم وثقافاتهم ومستوياتهم في الفهم والإبداع، كما يُرد ذلك في المقام الأول إلــى اتجاهاتهم الدينية المذهبية ونزعاتهم الإنســانية، ومدى صدقهم مع أنفسهم ومع الحقائق.

ومما يجدر بالتنويه في هــذا الصدد تلك الجهود المضنية التي بذلها كُتّاب السِّيَر القدامى من رواة المسلمين ومؤرخيهم وعلمائهم في الصدر الأول من الإســلام، في ســبيل تســجيل أحداث الهجرة وملابســاتها والمواقف التي التزم بها رســول

الله ﷺ قبل الهجرة وأثناءها وبعدها، والمخاطر التي خاضها لتوطيـد دين الله الحـق، ودعم رسـالته الخالـدة، والتمكين للمجتمع الإسـلامي الأمثل، وصعودًا إلـى الغد، في ظل كتابه الحكيم، وسنة رسوله الكريم

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

(المنافقون: ٨).

ذلك أن هؤلاء المؤرخين من أمثال ابن هشام (ت:٢١٣هـ) فيما كتبه عن السـيرة، والواقـدي (ت:٢٠٧هـ) في المغازي، وابـن سـعد (ت:٢٣٠هـ) فـي الطبقات الكبـرى، قد صنفوا أعمالهـم تلك في ظـروف بالغة العنت، بالنظر إلى الوسـائل البدائية التي لم يكن لديهم غيرها، سواء فيما يتعلق بالانتقال لتحقيق الأخبار أو بالاتصال للاسـتيثاق ممـا بلغهم منها، أو بالوسـائل العلميـة التي تيسـر البحث والدراسـة من مراجع وإحصـاءات وغيرهـا مـن مصـادر المعلومات ومـن رصيد خبرات السـابقين المسجلة وأسـاليب ومناهج علمية، أو فيما يتعلق بالاحتياجات البشـرية من مورد رزق ميسـور وأدوات للراحة والرفاهية وغير ذلك مما نعرفه في العصر الحديث.

فلا جرم ألا نطالب الكُتَّاب المسلمين الأوائل بمثل ما نطالب كتـاب العصر من التزام للمنهج العلمي فيما يعرضون له من موضوعـات السـيرة النبوية، فيكفيهم فخرًا أنهـم قدموا إلينا مادة ثمينـة للبحث العلمي، وأننا لم نكـن لننظر إلى الهجرة بمنظـار علـوم العصر لـولا تدوينهـم لوقائعهـا وتأريخهم

لأحداثهـا وتحري الكثـرة الغالبة منهـم الدقة فيمـا ينقلون ويسجلون، وغاية ما نطالب أنفسنا به أن نستكمل البناء الذي وضعوا قواعده الأولى، ونُعَمِّق المناحي التي أشاروا إليها فيه، ونجعل من سموه وحفله بأكرم المبادئ منارًا للإنسان في كل زمان وأوان.

ولا سـبيل لنـا - نحن الحريصيـن على اسـتيحاء الهجرة معانيهـا الجليلـة وبيانها للنـاس - للوفاء للرواد السـابقين بالفضل، إلا أن نوسـع من قاعدة العارفين بالهجرة - الواعين لمغزاهـا، ولا يتأتـى ذلك بغيـر مخاطبة الإنسـان في القرن العشـرين بلغته، لغة الفكر الإنسـاني والعلم الحديث، فلتكن النظرة العلمية إلـى الهجرة النبوية هي طريقنا - إلى تعميق مدلولاتها والوصول بها إلى أكبر عدد ممكن من الناس في كل موطن ومهما اختلفت الألسنة والمدارك والنوازع.

ومن الحق أن هذا الاتجاه في الكتابة عن الرسـول ﷺ من الرسالة قد ظهر لأول مرة في الثلث الأول من القرن العشرين اتسـاقًا مع التطور الحضاري في العصور الحديثة، فتعددت -مؤلفـات العلماء المسـلمين والأجانب القائمـة على مناهج البحـث العلمي، وتناول السـيرة النبوية في ضوء الدراسـات الإنسـانية التي نضجت وتبلورت في عالم اليوم، وبخاصة ما يتصل منها بالجانب الإداري.

ففي كتاب «حياة محمد» للمؤرخ الإسلامي الدكتور محمد

حســين هيكل يصف الكاتب حــدث الهجرة الأعظم بأنه قصة مــن أروع ما عرف تاريخ المغامرة في ســبيل الحق والعقيدة والإيمــان، ويتناول هــذه القصة بقلم باحــث متعمق في علم التاريخ، تاريخ الأمم وبخاصة التاريخ العربي الإسلامي، وهو إذ يحلل دوافع الهجرة ومقوماتهــا ووقائعها وأحداثها، يؤثر المنهــج التاريخي في تسلســله متحريًّا الدقــة والموضوعية فــي الرواية، وإلقاء الضوء على القيــم والمبادئ المثالية التي تحفل بها ســيرة المهاجر العظيم، مــع التركيز على المبادئ الدستورية وحقوق الإنسان كما استقرت في العصر الحديث، عاقدًا الموازنة بين النظم الإســلامية والنظــم الغربية بمعيار هذه المبــادئ والحقوق مما يرجع إلــى تخصُّص الكاتب في القانون الوضعي وممارسته للسياسة والحكم، كما أننا نلمس اهتمامه - في كتابه المشــار إليــه - بالجانب الأنتروبولوجي «علــم الأجنــاس»، والعلاقــة التاريخية بين الإنســان والأرض والتاريخ الاجتماعي للأجناس، وذلك في ســياق تناوله لتاريخ العرب والجزيرة العربية قبل الإسلام.

وفــي كتــاب «عبقرية محمــد» للكاتــب الإســلامي الكبير المرحوم عبــاس محمود العقــاد، ينحو المؤلــف منحىً آخر إذ يدرس الســيرة النبويــة من خلال منهج التحليل النفســي الــذي عُرف به وبَرع في تطبيق نظرياتــه على الأبطال الذين يكتب تاريــخ حياتهم، فيبين جوانب التفــرد العقلي والكمال

النفســي في شخصية الرسول العظيم داعيًا، وقائدًا عسكريًّا، وسياسيًّا، وخطيبًا، ومتحدثًا، وصديقًا، ورئيسًا، وزوجًا، وأبًا، وسيدًا، وعابدًا.

وفي كتــاب «محمد المثل الكامــل» للمرحوم محمد أحمد جاد المولى استعرض الكاتب الفضائل والمناقب التي وَهَبها اللــه نبيه لجعله على خلق عظيم، وذلك من خلال علم الأخلاق والتربية، فبيَّن كيف توافرت في شــخصيته تلك السجايا على أكمل صورة أبدعها الله.

أما أستاذنا الدكتور طه حسين فهو إذ يتناول حياة رسول الله – عليه الصلاة والسلام – في كتابه: «على هامش السيرة» يقدم بحوثًا تجمع بيــن التاريخ المحقق والتحليل الاجتماعي الحديث والأدب القصصي المشــرق، فيرصد الأحداث بمنظار العالم، ويرسمها بريشــة الأديب الصَّنَاع حتى يعيد تصويرها للقارئ كأنها واقع يعايشه العقل والقلب.

ومــن المؤلفات القيمة في الســيرة النبوية ما كتبه الكتاب الهنود المســلمون بمــا يعبر عن نظرتهم الفلســفية الروحية وهواهم الشيعي المعروف.

ولا شك أن هؤلاء المؤلفين، وفي مقدمتهم مولاي محمد علي الهندي فــي كتابه «محمد عليه الصلاة والســلام» قد أضافوا إلى تاريخ النبي صفحات جديدة ذات قيمة علمية كبيرة.

وفي الكتب المعنونة «بالإنســانيات» للأســتاذ خالد محمد

خالد[1] نراه يعنى باللمحات الذهنية والاجتماعية واللمسات الإنسانية من خلال عرضه لسيرة رسول الله والرجال الذين من حوله، وموقع هذه القمة السامقة من الضمير الإنساني والكرامة البشرية والإيمان الحق، مضيفًا بذلك إشعاعات جديدة من نور الوعي بالدعوة والداعي.

وإلى جانب أولئك وهؤلاء من الكتاب المسلمين، نجد كثيرًا من المستشرقين يتناولون السيرة في بعض كتبهم من خلال رؤيتهم الخاصة التي شكلتها مجتمعاتهم وعقائدهم وأساليب تفكيرهم، ونلاحظ بعض الأخطاء التي وقعوا فيها عن عمد أو جهل، تبعًا لاتجاه المؤلف وموقفه من الإسلام عقيدة وحضارة، ومن أشهر هؤلاء، المستشرق الأمريكى راشنجنن إرفنج، والكاتب الإنجليزي بودلي، والكاتب المستشرق نولدكه، والمستشرق المعاصر جب، والفيلسوف الأديب الألماني جوته، وتوماس كارليل في كتابه عن البطولة والأبطال حيث عقد فصلًا إضافيًّا عن شخصية محمد رسول الله ﷺ.

وهكذا نجد كل مؤلف ممن تناولوا سيرة رسول الله - عليه الصلاة والسلام - يعرضها من الزوايا التي تحقق هدفه، وتتفق مع اتجاهه النفسي والعلمي، ومن ثم يمتاز كل منهم

---

(١) كتاب في السيرة بعنوان: «إنسانيات محمد» ط. دار المعارف، القاهرة، (١٤١٩هـ/١٩٩٨).(المجلة).

بمنهج خاص، فقد يكون هذا المنهج أو التفسـير تاريخيًّا، أو نفسيًّا، وقد يكون اجتماعيًّا أو تربويًّا، أو يكون غير هذا وذاك من طرائق الدراسة والمدارس العلمية.

وغنيٌّ عن الذكر أن الجوانب الوضيئة في السـيرة النبوية بوجـه عام وفـي الهجرة بوجه خاصٍّ أكبر من أن يسـتوعبها مؤلَّف واحد أو مجموعة من المؤلفين، ولاشـكَّ أن الدراسـات القيمة في هذا المجال يكمل بعضها الآخر ولا ينقضه.

وسـوف نبحث في كتابنا هـذا وقائع الهجرة في ضوء علم الإدارة العامة ومشـتقاته من تخطيـط وتنظيم وقيادة إدارية وعلاقات إنسـانية وفقًا للمفاهيم الحديثة، ولا نزعم أننا ننفرد بانتهاج هذا المنحى في دراستنا تلك، فلقد انتحاه قبلنا بعض الباحثين والمفكرين، ونخص بالذكر منهم المرحوم الأسـتاذ الكبيـر عباس محمود العقاد، والأسـتاذ الدكتـور عبدالعزيز كامل، بيد أننا سوف نستكمل ما أورداه ونسهب فيما أوجزاه، ونضيف إليه ما تعنيه المصطلحات المشار إليها وفقًا لأحدث التعاريـف والتحاليل التي جاء بها المؤلفون المعاصرون في الشـرق والغرب، مسـتهدفين من ذلك التدليـل على أن وقائع الهجـرة تتفـق في مجراهـا ومغزاهـا مع تلـك - المضامين والمفاهيـم، وتقديم صـورة حياة للمهاجـر العظيم وصحبه تسـاير الأحداث كما جرت فـي الواقع، وتطالـع القارئ بلغة العصر.

وتتبيــن الحاجة إلى هذا الإســهاب إذا لوحظ أنه لم يصدر كتاب مســتقل يتناول الهجرة في ضوء علــم الإدارة وفروعه، وإنما نشــرت بعض الكتابــات الحديثة التي تتناول الســيرة النبويــة عامــة، وفقًا لهــذا المنهــج العلمــي دون تخصيص للهجرة، ومن ذلك أن الحديث عن الجانب الإداري في شخصية النبــي -عليه الصلاة والســلام- كمــا ورد في كتــاب العقاد: «عبقرية محمد» لم يتجاوز بضع صفحات، ولم يتناول جانب التخطيــط والتنظيــم بمعناهما المســتحدث؛ وإنمــا عُنِي في المقــام الأول بإدارة الحكم من حيث هــي أوامر ونواهٍ يمليها الحاكــم أو الرئيس، وإن كان قد أشــار إلى شــخصية محمد الإداري في ثنايا الفصول الأخرى مثل فصل «محمد الرئيس».

علــى أن الجانب الذي ندر أن تناولــه الباحثون أو تناولوه فــي عجالــة لا تغني، هــو القيــادة الإدارية، بالنظــر إلى أنها أحدث العلوم الاجتماعية جميعًا، وإلى أن القيادة العســكرية هــي التي تحظى بأكبر قدر من العناية، ومن ثم كان اهتمامنا بذلــك النوع الحديــث من القيادة وتركيزنا عليه في دراســتنا للهجرة، ولقد بدأ هذا الاهتمام في مطالع الستينات من القرن العشــرين حيث كتبنا بحثًا بمجلة الأزهر في «القيادة الإدارية في الإسلام».

لذلــك، فإن الإطار العــام لهذا البحث هو ذاتــه الذي يضم المؤلفات المشــار إليها من حيث استناده إلى الأسس العلمية،

ومخاطبته للإنسان المفكر أينما كان وأيًّا كانت عقيدته.

أمــا الصــورة التــي يضمها هــذا الإطار المشــترك، فإنها تختلف في التفاصيل بين دراســة وأخــرى، ولقد حدا بنا إلى التوسع في دراسة هذه الملامح في قالب عصري تلك الأهمية البالغة لعلم الإدارة في الوقت الراهن، وخاصة فيما يتعلق منه بالقيادة الإدارية وقياسها على دعامتي التخطيط والتنظيم.

فالمرحلــة التي يجتازها العالــم المتحضِّر الآن هي مرحلة التفكير والتخطيط والتنظيم، وهي تحتاج من الأمة الإسلامية، بعد الإيمان العميــق بأهدافها والاســتعداد الكامل للبذل، إلى المنهج العلمي في البحث والدراسة، فالقوة -مهما بلغ حجمها تصبــح قوة ضالة إذا لــم يكن مُوجِّهُها والمنظِّــم لها التفكير المنظَّــم والتخطيط الدقيق، ولعل أي عمــل- مهما بلغت قوة اندفاعه لا يصــل إلى مبتغاه إلا إذا قام على ركيزة من الفكر، وبعده تســتطيع القوة أن تنجز وعدها ، ويســتطيع العمل أن يصل إلى مداه.

والهجرة حــدث تاريخيٌّ من أعظم الأحداث التي شــهدتها الإنســانية ونموذج حــيٌّ متجدِّد على مر العصــور، قادر على الإلهــام بأعظم الأعمــال، ويقدم أروع القيــم والمثل ، وأحكم التدابير التي تكفل نجاح من يلتزمها.

وهــي – بمقياس العصــر – عمل بطولي خارق ، أساســه التخطيــط المحكم والتنظيم الســديد، تخطيط قــام به النبي

العظيم، وتنظيم وضعه بوحي من الله تعالى، فنجحت الخطة وبلغ الرسول مأمنه، فخاب ظن الكافرين وصدق الله العظيم:

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾

(الأنفال: ٣٠)

وفـــي ضوء مــا تقدم فقد كان من الضــروري أن نخصص الفصــل الأول من هذا الكتــاب للحديث عن الأصــول الفكرية والعلمية في الإسلام، قاصدين من ذلك إقامة البرهان على أن دراسة الهجرة من وجهة نظر علم الإدارة الحديث ليست بدعة من البدع، بل إنها تنبثق من طبيعة الإســلام دينًا ودولة؛ لذلك فقــد تكلمنا في هذا الفصل عن البراهين العقلية والنقلية على أصالة التفكير في العقيدة الإســلامية، معتمدين في الشواهد القرآنية على ما ورد بكتاب «التفكير فريضة إسلامية» للأستاذ عباس العقاد، وفصَّلنا القول في قيام العلم أساسًا للدعوة إلى الإيمان، وفي فضل العلم وكرامة العلماء، وفي شــمول العلوم الإسلامية للدين والدنيا، ومن ذلك اتساعها للمعرفة في جميع المجالات التي يرسخ بها الدين ويتقدم المجتمع.

وخلصنــا من ذلك إلــى أن التخطيط هو خلاصــة التفكير والتدبير، وأنه عماد المعرفة الصحيحة، وأسلوب العلم الحق؛ ومــن ثم كان منهاجًــا للأنبياء والمرســلين والمصلحين، وقد أقمنــا الدليل على ذلك مــن التدابير الاقتصاديــة التي اتبعها يوســف عليه السلام في مصر للقضاء على شــبح الفاقــة والمجاعة،

وأوردنــا الآيات القرآنية التي نزلت في ســورة يوســف مبينة معالــم الخطــة الاقتصادية التــي وضعها، التي تعــد نموذجًا لالتــزام الأنبياء والمرســلين بمبــادئ التخطيط في مباشــرة الحكم وإدارة شئون مجتمعاتهم، ودعوة للنبى وأصحابه كي يحذوا حذوهم.

وعلــى هدي هــذه الدعوة الإلهيــة اتبع محمــد -قائد الأمة الإســلامية، ومؤســس دولتها الأولى فــي دار الهجرة -منهج التخطيط في مســيراته نشرًا لدين الله وتمكينًا له في العقول والقلوب، واتخذه أســلوبًا في الســلم وفي الحرب، وجعل منه تراثًا ملهمًا للمســلمين من بعده، ومن ثمَّ اختتمنا هذا الفصل بالتدليل على أن التخطيط كان أساسًا للنهضة الإسلامية، سواء فــي المجال العلمي النظري أو في المجال العلمي التطبيقي، وأنه تكليف للكافة بحكم القرآن، كما أوردنا حديثًا نبويًّا يؤيد هذه الحقيقة.

وكان طبعيًّــا بعــد ذلك أن نمهــد للفصل الثانــي الخاص بالتخطيــط للهجرة بالتعريف باصطــلاح التخطيط وأبعاده، فــي العصر الحديــث؛ فبدأنــا بتحديد معناه العام ومنشــئه، وذكــر بعض تعريفاته لــدى الباحثيــن المتخصِّصين، وبيان أوجه اســتخدامه والإفــادة منه، وإيضاح قواعــده وإجراءاته، وخصائص الخطط الفعالــة والضمانات التي تكفل نجاحها، وانتهينا من هذا المبحث النظري الموجز إلى دراسة تطبيقية

فــي التخطيط النبوي لوقائع الهجــرة منذ كانت فكرة أوصى الله بها إلى رســوله، حتى عدت حقيقة أحدثت تغييرًا جذريًّا شــاملًا في تاريخ الإنســان علــى أرض الجزيــرة العربية وما حولهــا، بل في كل ركن من هــذا العالم المترامي فتناولنا أولًا دراســة الهدف من خطة الهجرة ودوافعها، وأســباب اختيار يثــرب مقصد النبــي وصحبه وبحثنــا ـ ثانيا ـ فــي التدابير التــي اتخذها - عليه الصلاة والســلام - تمهيدًا لهجرته وهي التحالــف مع أهل المدينة في بيعــات العقبة الثلاث، إذ كانت هذه المعاهــدات بمثابة الأعمال التحضيرية للهجرة، ثم قدوم المهاجرين من مكة إلى المدينة أفرادًا وجماعات.

وعالجنا بعد ذلك كيفيــة الإعداد للهجرة والخطة المضادة التي وضعها رســول الله ﷺ لإحباط خطط المشــركين، كما بينا أســلوب العمل وهو الحــرص والكتمــان، والطريق الذي اختاره مسلكًا له.

واتفاق هذا الأســلوب مع القواعد العلمية للتخطيط حسبما أوردناها.

أما في الفصــل الثالث الخاص بالتنظيــم في الهجرة فقد نســجنا على المنوال نفســه الخاص بالتخطيط بحســبانهما أشــبه بوجهين لعملة واحدة، فذكرنا تعريف التنظيم وأهميته والمبــادئ التــي تحكمه وضمانات نجاحه، ولما كان تقســيم العمــل من أهــم قواعــد التنظيم فقــد عنينا بإثبــات مطابقة

الأسلوب الذي اتبعه رسول الله في تحديد مهمة كل من تعاون معــه، لقاعـدة تقســيم العمل التــي تقوم على وضــع الرجل المناســب في المكان المناســب أو ـ بعبارة أخرى ـ التناسب بين الرجل والوظيفة.

فشرحنا الأسباب التي اقتضت اختيار كلٍّ من هؤلاء الأبطال لأداء مهمــة معينــة بذاتها، وأثبتنــا أنه لم يكن من الميســور وضــع هذا بديلًا لــذاك، وإنما وَضْع كلٍّ فــي موضعه بتقدير دقيق مما يتفق من ناحية أخرى مع نظرية القيادة الموقعية، ومبدأ التعاون اللذين أشرنا إليهما في الفصل الأخير.

ومن ثَمَّ تحدثنا عن الســمات النفســية والقــدرات الذهنية والتكويــن الخُلُقيِّ لكل مــن أبي بكر الصديــق وعلي بن أبي طالــب وعبدالله بن أَرْقَط[٢] وأســماء وعائشــة ابنتي أبي بكر وعامر بن فهيرة.

وقد خصصنا الفصل الرابع لبحث الخطة والتنظيم اللذين وضعهما رســول الله في دار الهجــرة، فبينًّا كيف نبعت هذه الخطة من واقع الظروف الجديدة، وحتمية أسلوب المجابهة، ووســيلة تحقيق الهدف، وهي قوة الإيمان والوحدة ـ وأفضنا في الحديث عن تنظيم مجتمع المدينة واحتياجاته الأساسية، وباكورة تدابير الوحدة، وكيف أُنجزت الخطة.

وخصصنا الفصل الخامس وهو آخر فصول الكتاب لبحث

---

(٢) هو عبدالله بن أَرْقَط ويقال: ابن أريقط، ينظر «سيرة ابن هشام» ٤٨٨/١. (المجلة).

القيادة الإدارية للرســول الكريم في دار الهجرة، ومهَّدنا لذلك بتعريف علم الإدارة العامة ، وهو أحدث العلوم الإنسانية وبيان أهميته القصوى في عالم اليوم القائم على الجهود الجماعية، وتكلمنا عن عناصره، وارتباط بعضها ببعض، وتوافر القيادة الإدارية فيمن تتكامل في شخصيته تلك العناصر، وأشرنا إلى أهمِّ تعريفات القيادة ونظرياتها وأنماطها.

وانتقلنا من ذلك إلى شــرح أهم مقومــات القيادة الإدارية، كما تبدو من خلالها ســيرة الرســول -عليه الصلاة والسلام- فــي دار الهجــرة؛ فعالجنا هــذه المقومات في عــدة مباحث هــي الانتماء إلى الإســلام، وقوة الإيمان، والقــدوة في الالتزام بالدعوة، والصبر والمقاومة في مواجهة التحديات.

وكان منهجنا في إثبات أهمية تلك الخصائص أو المقومات في القائد وتوافرها في شــخصية رسول الله ﷺ الاستناد إلى القرآن والسنة والتاريخ، ومن ثم جمعنا بين النظرية والتطبيق فيما تعرضنا له من موضوعات.

وأخيرًا، فتلــك محاولة لتعميق الوعــي بالارتباط العضوي بين الدين والعلم والحياة كما يتضح بجلاء في الهجرة النبوية وبالله التوفيق.

بقلم الأستاذ / حسن فتح الباب

الفصل الأول

الأصول الفكرية والعلمية
في الإسلام

تشــهد حركــة التاريــخ وما ســجلت صفحاته مــن وقائع وأحداث أن دعوة الإســلام التي بشر بها محمد – عليه الصلاة والســلام – في مطلع القرن الســابع الميلادي، ســنة ٦١٠م، كانــت ثــورة اجتماعيــة شــاملة بأجلــى معانيهــا، قصد بها المشــرع الحكيم أن يربط الأرض برســالة السماء من طريق صلاح النفس وصلاح المجتمع، فلا غرو أن تقترن الدعوة منذ بدايتهــا بالنهضة العلمية والثقافيــة، وأن تكون هذه النهضة إحــدى الســبل الجوهرية لتحطيــم الطغيان، وإقامــة العدل، وإتاحــة فــرص الحيــاة للمحرومين، وإرســاء مبــادئ الحق والمســاواة بين العالمين، ذلك أن نشــر العلوم وألوان الثقافة الصحيحة والمعرفة الشــاملة هو الدعامة القوية التي يســتند إليها الإيمان الحق بالإســلام، وهو الســلاح الــذي يفل أباطيل المضللين، ويكشــف أراجيف المرجفين، ويمهد السبيل لخلق واقع جديد للمجتمع يســير في هداه حتى يبلغ غايته السامية في توحيد أفراده وضمان الخير والعزة لهم.

لقد وعت رســالة الإســلام الدور الضخم الذي يؤديه العلم في بنــاء الفرد وهــو وحدة الأســرة أو الجماعة التي تشــكِّل خليــة المجتمع، وأدركت ما يفتحه العلم من آفاق رحيبة نحو مستقبل كريم للإنسان وما يفجره من طاقات خلاقة في الأفراد والجماعات؛ ففتحت المغاليق والسدود التي كانت تقف حائلًا في ســبيل العلم، ومهدت له الطريق ليتسلل إلى كل عقل كي

يتهيأ لاســتقبال الدعوة الإســلامية والإيمان بهــا، فإذا تمت له نعمــة الهداية أصبح عضوًا نافعًا في مجتمعه، واســتطاع أن يشارك في العمل الجماعي لتطوير هذا المجتمع الذي يسعى بدوره إلــى تطوير المجتمعات الأخرى؛ لأنــه يؤمن أن العالم وحدة واحدة، وأن رسالة الإسلام رسالة إنسانية شاملة.

تلك هي المقاصد الرئيسة التي توخَّاها الإسلام، دينًا ودولة في ثورته الثقافية فالعلم الحق هو الطريق القويم إلى معرفة الله والإيمان به، وهو ســبيل الدولة حكومة وشعبًا إلى الرفعة والتقدُّم والرخاء، وهو أمل البشرية كافَّة في تحرُّرها وتطوُّرها ووحدتها.

ومن ثَمَّ كان العلم ـ وهو أكبر روافد الثقافة ـ حجر الزاوية في الدعوة الإســلامية، ولا عجب أن يبدأ الإســلام بالدعوة إلى العلــم؛ إذ كانت الرســالة التي بُعث بها محمد رســالة عقيدة وحضــارة، جاءت لتهدم كل مظاهــر التخلف والجمود والقيم الباليــة والمعتقــدات الزائفــة، وترســي على أنقاضهــا قيمًا صحيحة ومفاهيم رشــيدة، وكانت الخطوة الأولى في ســبيل نشــر هذه الرســالة هي تحرير الجزيرة العربيــة وبعثها من ظلمــات الضلال والأوهام إلى نور الحقائق الدينية والدنيوية، إذ كان العــرب فــي جاهليتهــم بمعزل عن التيــار الحضاري الســائد في بعض مناطق العالم في ذلك الحين بحكم بيئتهم الصحراويــة المغلقــة، وانعــدام الســبيل إلى مــوارد الثقافة

البعيـدة، فضلًا عن طبيعة الحياة الفطرية وما تتسـم به من عدم الاستقرار بحثًا عن أسباب العيش.

وفى ذلـك يقول الكاتـب الكبير المرحوم أحمـد أمين في كتابه «فجر الإسلام»[٣]:

لقـد تأخر العرب عمن حولهم في الحضارة، وغلبت عليهم البداوة، وعاش أكثرهم عيشة قبائل رحل، لا يقرون في مكان، ولا يتصلون بالأرض التي يسـكنونها اتصالًا وثيقًا كما يفعل الـزراع، بل هم يتربصون مواسـم الغيـث، فيخرجون بكل ما لهم من نسـاء وإبل يتطلبون المرعـى، لا يبذلون جهدًا عقليًّا فـي تنظيم بيئتهـم الطبيعية، كمـا يفعل أهـل الحضر، إنما يعتمـدون على ما تفعل الأرض والسـماء فـإن أمطرت رعوا، وإلا ارتقبوا القدر، وليس هذا النوع من المعيشـة بالذي يرقي قومه ويسـلمهم إلى الحضارة، إنما يسلم إلى الحضارة عيشة القرار واستخدام العقل في تنظيم شئون الحياة.

ومـن ثم كانت البيئـة العربية في الجاهليـة مرعى خصبًا للأساطير والترهات والأباطيل، واتسم أهلها بالجهالة وضيق الأفـق وما يترتب عليهما من غلظة وجمود وعجز عن الطموح إلـى الآفاق الإنسـانية الرحبـة، وتطوير الحياة إلى مسـتوى أفضل، وإنشـاء حضارة تقوم على العلم والثقافة، ولئن أثبت

---

(٣) صـ٤.

التاريـخ أن العـرب قبل الإسـلام كانـوا على صـلات تجارية بدولتي الفرس والروم المتاخمتين للجزيرة العربية مما يؤدِّي إلى تأثُّرهم بحضارتيهما، فمن الثابت كذلك أن حضارة هاتين الدولتيـن في ذلك الحين كانت تمر بمرحلة غروب واحتضار، كما يطلق عليها في المصطلـح الحديث، فكانت لذلك عاجزة عـن النهـوض العلمي بأهلها بَلْـهَ الغرباءَ من أبناء الشـعوب المجاورة.

وهكـذا خيَّمت ضلالات الجهالة على العرب قبل الإسـلام ، أمَّـا مـا عرف عنهم في عصـر الجاهلية من بلاغـة القول في خطبهـم ومواعظهم وأشـعارهم التـي كانـوا يرتجلونها في المواسم والأسواق فتلك موهبة فطرية لا ترقى بهم إلى مصافِّ العلم، وليس بوسعها وحدها أن تشكل ثقافة عميقة تنبع منها جداول الفكر والحضارة.

ذلـك أن عماد العلم والثقافة هـو التدوين، وقد جاء حديث رسـول الله ﷺ مصداقًا لذلـك بقوله: «العلم صيـد والكتابة قيد»[٤].

وكان التدويـن قاصرًا على قلة من رجـال قريش بلغت من النـدرة حدًّا لا يقاس عليـه، وقد وردت أسـماؤهم في التاريخ على سـبيل الحصر، وهم الخلفاء الراشدون: عمر بن الخطاب،

---

(٤) أورده القنوجي في أبجد العلوم.. ١٠٢٠ مرفوعًا للنبي ص٢ وقال: ولعل هذا الحديث لم يصح.

وعثمــان بن عفان، وعلي بن أبى طالب[٥] وأربعة عشــر رجلاً غيرهــم[٦]، ويقول في ذلك المؤلف البــلاذري في كتابه فتوح البلدان[٧]:

«إن الإســلام دخل وفي قريش ســبعة عشــر رجلًا يكتب».

ويمكن أن نتصور مدى الأمية التي كانت عليها القبائل الأخرى إذا لاحظنا أن قريشًــا كانــت تمثل مركز الصدارة في الجزيرة العربية من حيث نفوذها وطاقاتها ومواردها وخاصة مركزها التجاري الممتاز الذي كان يتيح لها الاتصال بالبلاد المجاورة.

العلم أساس الدعوة إلى الإيمان:

جاء الإســلام فكان ثــورة على الجهالة، ودعــوة إلى الفكر والعلم والشــواهد على قيام الدعوة الإســلامية على أساس من العلم والثقافة لا تقع تحت حصر، وحســبنا أن نشير هنا إلى أن آية الرسول الأولى ومعجزته الخالدة هي القرآن الذي حوى من العلم كل شيء.

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾

(فصلت: ٣)

وأن أول ما أنزل من الآيات البينات على رسوله الكريم قوله تعالى:

---

(٥) لعــل المؤلف أغفل ذكر أبي بكر الصديق رضــي الله عنه متابعًا في ذلك للبلاذري، والصواب عده من الكتبة؛ كما فعل ابن هشام وابن كثير، فتأمل. (المجلة).

(٦) راجع: «البداية والنهاية» لابن كثير: ٨/ ٣٢١-٣٥٦ (المجلة).

(٧) صـ٤٥٣ (المجلة).

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

(العلق: ١-٥)

ومن دراسة القرآن يتبين أن مزيَّة التنويه بالعقل والتعويل عليــه في أمر العقيدة وأمر التبعــة والتكليف هي - كما يقول كاتــب الإســلام العظيــم المغفور له الأســتاذ عبــاس محمود العقاد في كتابه «التفكير فريضة إسلامية»[٨]-: إحدى المزايا الكثيــرة الواضحة في القرآن. فهو لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيــم والتنبيه إلى وجوب العمل بــه والرجوع إليه والحث علــى تحكيمه، ولــوم المنكِر على إهمال عقلــه وقبول الحجر عليه. ويتســع مدلــول العقل فــي القرآن حتى يشــمل جميع معانيــه، فهو العقل الوازع، والعقل المــدرك، والعقل المفكر الذي يناط به التأمل الصادق والموازنة والحكم الصحيح على المعانــي والأشــياء، ولا يأتي ذلك العقل في آيــات الله عرضًا مقتضبًــا، بل يذكــر مقصودًا مفصَّــلًا على نحــو لا نظير له فــي كتاب من كتب الأديان، ويتكرَّر خطــاب أولي الألباب في مواضــع كثيرة فــي القرآن الكريم، وكل خطــاب إلى اللب هو خطــاب إلى العقل بمختلف معانيه، فمن تلك المعاني ما يدل

(٨) العبارة من المصدر بتصرف، راجع: التفكير فريضة إسلامية للعقاد: ٣-١٥(ط نهضة مصر).(المجلة)

على الوعي والإدراك والرشد:

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

(آل عمران: ٧)

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (الزمر: ١٨)

﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ (المائدة: ١٠٠)

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

(يوسف: ١١١)

﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

(البقرة: ٢٦٩)

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾

(البقرة: ١٧٩)

﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (الرعد: ١٩)

ومن معاني العقل الواردة في كتاب الله ما يقصد به الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والذكر:

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ

﴿ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

(البقرة: ٢١٩)

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (آل عمران: ١٩١)

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الأنعام: ٥٠)

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ (الروم: ٨)

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾

(الأعراف: ١٨٥)

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ (الطارق: ٥)

﴿ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (القصص: ٧٢)

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾

(نوح: ١٥)

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

(الذاريات: ٢٠، ٢١)

﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ (آل عمران: ١٣)

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾

(محمد: ٢٤)

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

(البقرة: ٢٢١)

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(النحل: ٤٣)

أمــا العلــم وهو أحــد خصائص العقــل فقد نزلــت الآيات متتابعات بذكر العلم والتعليم والذين لا يعملون:

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٥١)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(الجمعة: ٢)

﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ ﴾

(البقرة: ٢٤٧)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (يونس: ٥)

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾

(الكهف: ٦٦)

﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾

(الرحمن: ٣، ٤)

﴿ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾

(العلق: ٤، ٥)

﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ٧)

ويتبين من هذه الآيات أن العلم من السِّمات الرئيسة التي يمتاز بها المؤمن، فلا إيمان بغير علم؛ لأن أساس الإيمان الإدراك والتدبير والاتعاظ بالذكر والذكرى، ومن ثم اقترن الإيمان بالعلم في القرآن، فالذين يتبصَّرون في آيات الله في السماوات والأرض هم المؤمنون، والذين يتدبرون في آيات الله في أنفسهم هم الموقنون والصابرون الشكورون الذين يرون نعم الله، هم الذين ينظرون كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئه النشأة الآخرة فيدركون أنه على كل شيء قدير، أولئك هم العارفون بالله حقًّا.

فضل العلم وكرامة العلماء:

إن تأمل الآيات التي أوردناها يقدم أصدق دلالة على أن العلم دعامة أساسية في بناء العقيدة الإسلامية، وأنه يمثل

نقطة انطلاق المسلمين إلى آفاق العالم الفسيحة، وأداتهم في إنشــاء حضارة إنســانية خصبة تغني البشرية وتهديها سواء الســبيل، ومن ثم توافر ذكــر العلم في القــرآن الكريم تنبيهًا للأذهــان، وحثًّا لها على التفكير، فمن خلال التبصر في خلق الســماوات والأرض، وإعمــال الفكر في خلق الإنســان، وفي أسرار الوجود، وما تدل عليه من وجود الله، يولد الإيمان الحق ،ويثبت في النفوس معناه، وتزدهر حكمته.

وتحقيقًا لهذه الغاية أشــاد الإسلام بالعلم والعلماء، فنزلت أولــى الآيات بالدعوة إلى القــراءة[٩]، وهي الخطوة الأولى في سبيل اكتساب العلم، وأقســم الله - سبحانه وتعالى - بالقلم وهو أداة العلم:

﴿نٓ ۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾

(القلم: ١)

كما أقســم بالكتاب وهو بمثابة الوعــاء الذي يحتوي العلم ووسيلة إبلاغه إلى الناس:

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ﴿٢﴾ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ﴿٣﴾ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ (الطور: ١ - ٥)

ووصف ذاته - سبحانه - في كثير من الآيات بالعلم دلالة على تعظيم هذه الصفة حتى عدت من الأسماء الحسنى، وميَّز

(٩) يعني قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ الآية من سورة العلق كما تقدم قريبًا (المجلة).

العلماء على غيرهم في قوله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(الزمر: ٩)

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

(المجادلة: ١١)

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾

(العنكبوت: ٤٣)

وتكريمًا للعلم وتعظيمًا للعلماء نزلت الآية الكريمة تقرن الخشية بالعلم:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

(فاطر: ٢٨)

ولقد رفع الله العلماء إلى أسمى مكانة إذ أضاف العلماء إلى ذاته - سبحانه - وإلى الملائكة في الشهادة بالوحدانية بقوله تعالى:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾

(آل عمران: ١٨)

أما الأحاديث الشريفة فهي تؤكِّد فضل العلم، وتحُضُّ على طلبه بمختلف الأساليب المشروعة، ومما جاء في الحديث

قول الرسـول ﷺ في استمرار عمل الإنسان العالم الذي ينفع الناس بما أوتي من معرفة بعد موته.

«إذا مـات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علـم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[١٠] وفي سـبيل الحث على العلم والمعرفة يفضل الإسلام العالم على العابد المنقطع للعبادة بقوله ﷺ :«فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سـائر الكواكب»[١١]، وقولـه ﷺأيضًا: «قليل العلم خير مـن كثير العبادة»[١٢] وقوله: «سـاعة عالـم متكئ على فرشـه ينظر في علمه خير من عبادة العابد ستين يومًا»[١٣] ، وقوله في حتمية العلم لفهم أحكام القرآن والانتفاع به:

«حضور مجلس علم أفضل مـن صلاة ألف ركعة، وعيادة ألـف مريض، وشـهود ألف جنـازة، قيل يا رسـول الله: ومن قراءة القرآن؟ فقال ﷺ: «وهل ينفع القرآن إلا بالعلم»[١٤].

---

(١٠) أخرجـه مسلـم في صحيحه: (١٦٣١) مـن حديث أبي هريـرة - رضي الله عنه - (المجلة).

(١١) أخرجه أبوداود في سننه: (٣٦٤١) والترمذي في سننه: (٢٦٨٢) وصححه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.(المجلة).

(١٢) أخرجـه الطبراني في «المعجم الأوسـط»: (٨٦٩٨) وابن عبدالبر في «جامع بيان العلم وفضله:(٩٠) كلاهما من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.(المجلة).

(١٣) أورد معنـاه علي القاري بلفظ: «تفكـر ساعة خير من عبادة سنة» في المصنوع (٨٢/١، رقم ٩٤)، وقال ليس بحديث إنما هو من كلام السري السقطي -رحمه الله تعالى-.

(١٤) حديـث موضوع، ذكره الذهبي في «تلخيص كتاب الموضوعات»: (١٢٠) والفتني في «تذكرة الموضوعات» ٢٠.(المجلة).

وقولــه مقررًا إيثار العالم بحق الشــهادة يوم القيامة على حيــن لا يظفر العابــد إلا بدخــول الجنة: «يبعث اللــه العالم والعابد، فيقال للعابد: ادخل الجنة، ويقال للعالم: اشــفع كما أحسنت أدبهم»[١٥].

وقوله في أفضلية تعليم كتاب الله على الصلاة:

«يا أبا ذر، لأن تغدو فتعلَّم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلــي مئة ركعة، ولأن تغدو فتعلَّــم بابًا من العلم عمل به أو لم يعمل، خير من أن تصلي ألف ركعة»[١٦].

وقوله في نعمة العلم الذي ينفع صاحبه به الناس:

«لا حســد إلا في اثنتيــن: رجل آتاه الله مالًا فســلطه على هلكتــه في الحــق، ورجل آتاه اللــه الحكمة فهــو يقضي بها ويعلمها»[١٧].

ويقــول فــي العلاقة الوثيقة بين ســلامة الإيمان وســلامة العقل وهو أداة العلم:

«ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه إلى هدى

---

(١٥) أخرجــه ابن عبدالبر في «جامع بيان العلم وفضلــه» (٩٧) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.(المجلة).

(١٦) أخرجه ابــن ماجه في «سننه»: (٣١٩) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وحسنه المنذري في «الترغيب والترهيب»: ٢/٣٥٥.(المجلة).

(١٧) أخرجــه البخاري في «صحيحه» (٧٣) ومسلم في «صحيحه»: (٨١٦) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه (مجلة).

أو يرده عن ردى، وما استقام دينه حتى يستقيم عقله»[١٨].

وفي سبيل الحثَّ على العلم والمعرفة أعلى الإسلام من قدر العلمــاء فجعلهم ورثــة أكرم خلق الله وهــم الأنبياء، إذ يقول - عليه الصلاة والســلام -: «العلمــاء ورثة الأنبياء»[١٩] ويعدل المــداد الذي يســتخدم فــي تدوين العلم من حيــث قيمته دم الشــهيد، وهو أغلى دم يبــذل فيقول تعالى فــي غير القرآن: «يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة»[٢٠].

ويقول - عليه الصلاة والســلام - في ســموِّ منزلة العلماء إلــى درجة لم يبلغها إلا الأنبياء والرســل وهي الصلاة عليهم، أي طلــب الرحمة لهــم: «إن اللــه وملائكته وأهل الســماوات والأرض حتــى النملة فــي جحرها، وحتى الحــوت في جوف البحر ليصلون على معلم الناس الخير»[٢١].

بل إن الإســلام يجعل مرتبة العلماء تسبق مرتبة الشهداء، إذ يقول - عليه الصلاة والســلام - فيمن يحق لهم الاستشفاع

---

(١٨) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٧٢٦) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيه عبدالرحمن بن زيد وهو ضعيف راجع: «مجمع الزوائد للهيثمى» ٣٢١/١

(١٩) أخرجــه أبوداود في «سننه» (٣٦٤١) والترمــذي في «سننه» (٢٦٨٢) من حديث أبي الدرداء. (المجلة)

(٢٠) أخرجه ابن عبدالبر في «جامع بيان العلم وفضله» (١٥٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه وضعفه العراقى في «تخريج أحاديث الإحياء» (٢٤)

(٢١) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٦٨٥) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه وقال: «حسن صحيح غريب».

للخلق عند الله يوم البعث: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء».[٢٢]

ويقــول في فضل العلماء حين يتولون مراكز القيادة وخســارة الأمــة بفقدهم: «إن الله لا يقبض العلــم انتزاعًا فينزعه من صدور العلماء ولكنه يقبض العلم بموت العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالًا ،فسئلوا؛ فأفتوا بغير علم ؛ فضلوا وأضلوا».[٢٣]

ويقول ﷺ مؤكدًا خسارة البشر بفقد العلماء الهداة:

«إن مثــل العلماء في الأرض كمثل النجــوم يهتدى بها في ظلمــات البر والبحر فإذا انطمســت النجوم أوشــك أن تضل الهداة»[٢٤].

ويقــول فــي المعنى ذاتــه: «لمــوت قبيلة خيــر من موت عالم»[٢٥].

ومثلمــا رفع اللــه منزلة العالم واختصــه بأعظم الأجر في الآخرة جعــل للمتعلم كذلك فضلًا وثوابًا كبيرًا وكريمًا أســوة

---

(٢٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤٣١٣) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه وضعف إسناده البوصيري في «مصباح الزجاجة» ٤/٢٦٠. (المجلة)

(٢٣) أخرجه البخارى في «صحيحه» (١٠٠) ومسلم في «صحيحه» (٢٦٧٣) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما (المجلة)

(٢٤) أخرجــه أحمــد في «المسند» (١٢٦٠٠) من حديث أنس بــن مالك رضي الله عنه وحسنه السيوطي في «الجامع الصغير»: ٢٠٨/١.

(٢٥) أخرجــه البيهقي في «شعب الإيمان»: (١٥٧٦) مــن حديث أبي الدرداء رضي الله عنه (المجلة).

بالعالــم، فكلاهما عند اللــه معزز ومكــرم، وكلاهما خير من ســائر الناس لما اختصهما الله به من فضل التعليم أو التعلم إذ يقول – عليه الصلاة والســلام –: «العالم والمتعلم شريكان في الأجر ولا خير في سائر الناس بعد»[٢٦].

وفي الأثر عن عبد الله بن مسعود:

«اغــد عالمًا أو متعلمًــا، ولا تغد بين ذلــك»[٢٧]، وليس ثمة حافز للمسلم على السفر والمعاناة في سبيل تحصيل العلوم والمعارف من قوله ﷺ: «من ســلك طريقًــا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقا إلى الجنة».

وقولــه مقررا المســاواة بين طلب العلم وبيــن الجهاد في سبيل الله، وهو أفضل الأعمال:

«مــن خــرج فــي طلــب العلم فهــو في ســبيل اللــه حتى يرجع».[٢٨]

ولقــد توالــت الآيــات الكريمــة والأحاديث فــي الدعوة إلى التماس العلم في مصادره ســبيلًا لبلوغ الغايات السامية في الإسلام وهي: هداية الناس، وتحقيق الخير والرفاهية لهم في

---

(٢٦) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٢٨٨) من حديث أبي أمامة الباهلى رضي الله عنه.

(٢٧) أخرجــه الطبراني في «المعجــم الكبير» ٩/ ١٥٠ (٨٧٥٢) مــن حديث عبدالله بن مسعود موقوفًا.

(٢٨) أخرجــه الترمذي في «سننه» (٢٦٤٧) من حديــث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال: حديث حسن غريب (المجلة).

ظل العقيدة السَّمحة؛ فيقول الله تعالى:

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

(النحل: ٤٣)

والذكر هنا هو العلم كما يفهم من ختام الآية.

ويقول سبحانه:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

(التوبة: ١٢٢)

ويقول المعلم الأعظم ﷺ مؤكدًا أن طلب العلم جهاد: «تعلموا العلم فإن تعلمه خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة».[٢٩]

ويقول: «لا بارك الله في يوم لا أزداد فيه علمًا»[٣٠] ويقول: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين».[٣١] «وإنما العلم بالتعلم»[٣٢]، وجاء في مأثور الحكم حثًّا على طلب

---

(٢٩) أخرجه ابن عبدالبر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٦٨) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٣٠) أخرجه بنحوه: الطبراني في «الأوسط» (٦٦٣٦) وابن عبدالبر في «جامع بيان العلم وفضله»:(٣١٨ , ٣١٩) من حديث عائشة رضي الله عنها، وضعف اسناده العراقى في «تخريج أحاديث الإحياء»: (١٣).

(٣١) رواه البخاري عن معاوية، رضي الله عنه.

(٣٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٦٦٣) من حديث أبي الدرداء مرفوعا.

العلم في مظانه مهما بعدت المناهل، وشــقت السبيل: «اطلب العلم مــن المهد إلى اللحد»، كما جــاء: «اطلبوا العلم ولو في الصيــن».[٣٣] فــإذا ذكرنا المدى الشاســع الــذي كان يفصل الجزيرة العربيــة عن الصين واعتماد الاتصال بين الشــعوب في ذلك العصر على الوســائل البدائية، وما يعانيه المســافر فضلًا عــن مخاطر الطريق من فرقة الأهــل والأحباب، والبعد عــن موارد الــرزق ومواطنــه، أدركنا قيمة العلــم الكبرى في الإسلام، ويكفي مصداقًا لذلك أن نذكر ما عرضه الرسول على أســرى المشــركين في غزوة بدر من إطلاق سراح من يفتدي منهم نفسه بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، ففي الحق أنها أشــبه بفدية النفس بالنفس كما تقضي قواعد الفداء التي شرعها الله، فالجهل عدو النفس البشرية، وملقيها فــي ركام العدم، ولكي تبنى دولة عليها أن تحرر النفوس من عبودية الجهالة، وتضيء بصيرتها بنور المعرفة، فتبعثها من الموت إلى الحياة.

ومن آيات الإســلام في تكريم العلــم والعلماء أن جعل من بيوت الله المقدســة مدارس للتعليم دلالة على قدســية العلم وكرامة المشــتغلين به من علماء ومتعلمين، ودلالة أيضًا على إدراك قيمــة العلم في تثبيت العقيــدة والاتصال بالله، ودوره

---

(٣٣) أخرجــه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٥٤٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وقال: إسناده ضعيف.

الكبير في تعميق وعي الفرد والجماعة بشئون الدين والدنيا؛ رفعًا لمســتوى الإنسان وإعلاء لشــأن المجتمع، فليس أشرف من المســجد مكانًا للعلم، ولا أدعى إلى الترغيب في تحصيل المعرفة من جعله منزلًا لها، كما أن التعليم في المســاجد من شأنه أن يوسّــع قاعدة المتعلمين؛ إذ يغشى جميع المسلمين بيوت الله لأداء الفريضة وبحث شئون دينهم ودنياهم.

وغني عن الذكر ما أفاضت به صحف التاريخ من الإشــادة بالرســالة العظمى التي اضطلعت بها المســاجد في النهضة العلمية عبر العصور الإسلامية الزاهرة، إذ كانت مراكز إشعاع العلــوم والحضارة العربية، اســتفاضت في العصر الوســيط حين بلغت الدولة الإسلامية أقصى مراحل التطور الحضاري، ونمت من أصولها شجرة المدنية الحديثة.

ولا يخفــى الــدور التاريخي العظيــم الذي قــام به جامع الأمويين في دمشــق، وجامــع القيروان[٣٤] فــي بلاد المغرب العربي ، ومســاجد الأندلس، والجامــع الأزهر في القاهرة في ســبيل دعم الدولة الإســلامية بالعلــم، ذلك الدعــم الذي كان من نتائجــه تلك الحضارة التــي أظلت العالــم أحقابًا طوالًا، كما كانت المســاجد منارًا للفكر الوَســطيِّ القائم على تعاليم الإسلام في الحرية والإخاء والعدالة.

---

(٣٤) القيروان بفتح الراء وضمها: مدينة بتونس. راجع: «التاج»: ٢٩٥/٣٩.(المجلة).

ففــي رحابها تلقى المســلمون دروس الجهاد في ســبيل الله، وتحت قبابها نشــأ المصلحون والعلماء والأبطال، وفوق منابرها ارتفعت أصوات الحــق والخير، ومن مآذنها انطلقت دعوة التوحيد فرددت الآفاق: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وعــم التكبير كل مــكان: «الله أكبر.. الله أكبــر» وانطلق جند الحق يدافعون عنه، ويزلزلون دولة الإفك والشــرك والطغيان في كل زمان.

ولم تعرف البشــرية في تاريخها الطويل أديانًا أو مذاهب إصلاحيــة اتخــذت مــن دور العبــادة مــدارس للمكافحيــن والمدافعيــن عن الحــق والمضحين في ســبيل اللــه والوطن والعقيدة مثلما جعل الإسلام من بيوت الله موائد للعلم والفكر والتحــرُّر، ولا غرو فالإســلام ديــن ودولة وهــو عقيدة وثورة ترمي إلــى صلاح الفرد وصــلاح المجتمع معًا، وهو رســالة هدى للعالم بأسره.

العلوم الإسلامية تتناول الدين والدنيا:

لا يقتصــر مفهوم العلم في الإســلام علــى الجانب الديني منه، بل يشــمل جانبــه الدنيوي كذلك، تــدل على ذلك طبيعة الدعــوة وحقائق العقيدة، وتاريخها المجيد، ذلك أن الإســلام - كمــا تقدم - يتميز عن الرســالات الســماوية الســابقة بأنه دين ودولة، عقيدة ونظام، فــلا رهبانية فيه، وهو دين العمل والكفاح الإيجابي في سبيل العيش الكريم، حتى لقد رفع قيمة

العمل، والعمل نفســـه عبادة من شـــأنها تقويم النفس وإعلاء شـــأن المجتمع كله، مما يحقق الغاية العليا لرســـالة الإسلام، ويتفق مع مفاهيمه ومبادئه ومراميه.

وتوثيق العلاقة بين حقيقة الدين من ناحية، والكون الكبير الـــذي نعيـــش فيه من ناحيـــة أخرى - كيما يثبـــت الإيمان في النفس، ولكي يســـتطيع الإنســـان أن ينعم بما ســـخره الله له مـــن أرض وماء وفضاء - لا يتأتـــى بغير العلم بقوانين الكون وشـــئون الطبيعة وأحوال البشـــر، مما يدخل في باب المعرفة بمفوهمها الشامل غير القاصر على شئون الدين والعبادة، بل إن كســـب الدنيا والآخرة، وهو أمر تقتضيه العقيدة السمحة، منوط بحســـن الاســـتفادة من آيات الله في البـــر والبحر، وما أكثـــر هذه الآيات لو أردنا الكشـــف عنها والعلم والانتفاع بها، يقول الله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الجاثية: ١٢ ، ١٣)

فمفتاح هذه القوى المشاعة، وتلك الخيرات المتاحة هو العلـــم، العلم الذي يفتق الأذهان، ويجلـــو الظلمات، ويميط اللثـــام عن وجه الحق في كل أفق قريـــب أو بعيد، فلا يكاد

يغيب عن شعاعه النافذ شيء.

والعلـم الـذي يقبل المسـلم عليه، ويسـتفتح أبوابه بقوة، ويرحل لطلبه من أقصى المشارق والمغارب ليس علمًا معيَّنًا، محـدود البداية والنهاية فكل ما يوسـع منادح النظر، ويزيح السـدود أمـام العقـل النهم إلى مزيـد من العرفـان، وكل ما يوثق صلة الإنسـان بالوجود، ويفتح له آمادًا أبعد من الكشف والإدراك، وكل ما يتيح له التقدم في العالم، والتحكم في قواه، والإفـادة من ذخائره المكنونة، ذلك كله علم ينبغي التطلع له، والتضلع منه، ويجب على المسـلم أن يأخذ بسـهم منه، وهذا الشـمول دلت عليه الآيات والسـنن، فهي موجهة إلى أي علم يطلـب: تعلم الخير، والحكمة، ما يقـي لعلها: من الضرر، ما يقرب مـن النفع، وتخصيـص العلم بلون معيَّـن من الثقافة كتخصيص المال بنوع معين من الأملاك لا وجه له ، ولا شـك أن فـي طليعـة ما يجب معرفتـه حق الله علـى الناس، وحق الناس بعضهـم على بعض، فإن هداية السـلوك إلى الصالح العام كبيرة الأثر في تنظيم الجماعات.

ومن الخطل أن نظن العلم المحمود أن نقتصر على دراسة الفقه والتفسـير وما شـابه ذلك من العلوم فحسـب، وأمَّا ما وراءهـا فهو نافلة يؤديها من شـاء تطوعًـا أو يتركها، وليس عليـه من حرج؛ ذلـك أن علوم الكون والحيـاة ونتائج البحث المتواصل في ملكوت السـماء والأرض لا تقل خطرًا عن علوم

الدين المحضة، بل قد يرتبط بها من النتائج ما يجعل معرفتها أولى بالتقديم من الاستبحار في علوم اللغة، إن علوم الحياة مساوية لعلوم الآخرة في خدمة الدين وتجلية حقائقه، وإذا كان التوسع في ربوع الشريعة يحتاج إلى مُدد فسيحة، فهذا التوسع وظيفة اجتماعية كسائر الوظائف التي تستكثر منها الدولة أو تستقل، ومن المصلحة التي تحقق رسالتها العليا، وليست دراسة الحقوق والقضاء أشرف في ذاتها من دراسة الطب مثلًا، ولو بلغ صاحبها مبلغ أبي حنيفة، وإنما الرجلُ صاحبَه في علمه بمقدار ما يسخر هذا العلم لنفع الناس ابتغاء رجاء الله، وانتظار ما لديه من مثوبة.

الأدلة القرآنية:

وآية هذا المفهوم الإسلامي للعلم أن القرآن الكريم عندما نوَّه بفضل العلم وجلال العلماء، إنما عنى العلماء الذين يعرفون عظمة الخالق من عظمة الخلق، وعنى العلم الذي ينشأ من النظر في النبات والحيوان وشئون الطبيعة الأخرى، ومن ثم فإن القرآن يحث على دراسة العلوم التي تتناول هذه الموجودات. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر: ٢٧، ٢٨)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾

(الروم: ٢٢)

وفي هذه الآية دعوة إلى دراسة علم تاريخ الحياة **Biology** الـذي يتناول تركيب الإنسـان في مختلـف الأماكن والأزمان، فضلًا عن العلوم الأخرى التي سبقت الإشارة إليها كعلم الفلك وعلم الطبيعة «الفيزياء» وعلوم النبات والحيوان.

ومن العلوم التي نوّه القرآن الكريم بخطرها، وأشـاد بقيمة المهارة فيها: العلوم العسـكرية، وجملـة الفنون التي تحتاج إليها الأمة في الدفاع عن وجودها وحقوقها عملًا بقوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠)

وقد جعل القرآن العناية بهذا اللون من الثقافة وهو العلوم العسكرية آية على صدق الإيمان وحسن الجهاد قال تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

(الحديد: ٢٥)

وختـام الآية بهذين الاسـمين الجليلين إشـارة إلى أن الله

يحب لعبـاده المؤمنين القـوة والعزة، وأن كل مـا يوفر ذلك نظريًّا وتطبيقيًّا هو من وسـائل التقرب إليه، ومن دلائل تقواه جل شأنه.

ولقـد أثنـى اللـه على عـدد مـن أنبيائـه الكـرام وعباده الصالحيـن، فذكر تفوقهم في علـوم الصناعة، وجهودهم في تطويع هذا التفوق لنصرة الحق ودعم جانبه، فقال جل شأنه يصف داود:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سبأ: ١٠، ١١)

وإلانَـةُ الحديد هي المهارة في إيجاد شـتى الآلات منه، والوصـول بصناعاته إلى حد الإتقان دون إعياء أو قصور، وذلك لحسـن الخبرة وطول الدربة، وقد أمر الله نبيه داود بتقدير السـرد، أي: كلفه بإحكام النسـج للدروع السوابغ التي ينتجها حتى تخرج في أعلى مسـتوى مستطاع، وفي موضع آخر يصف داود بنوعين من العبادة والعلم، أولهما: طول الذكر والتسـبيح، والآخر: إجادة العُدد الحربية، قال تعالى:

﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ

﴿ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ (الأنبياء: ٧٩، ٨٠)

وعباد الله الصالحون أثبت القرآن صلاحهم، وهم يقومون بأعمال رائعة تدل على علم بالحياة، وخبرة عميقة بشئونها، فهذا ذو القرنين يقول للذين منَّوه بالمكافأة إذا بنى لهم سدًّا يحميهم من أعدائهم:

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ (الكهف: ٩٥)

وهنا يظهر علم الرجل ببناء القلاع، فيحول منطقة عمله إلى مصانع يصهر فيها النحاس، وتُغْلى المواقد، ويقطع الحديد، وتمهد الأرض، وتسوى جوانب الجبل، ويؤدي الرجال الأتقياء واجبهم لله على هذا النحو الذي يحمي الضعاف ويصون الحق ويعلي شأن الإيمان:

﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾

(الكهف: ٩٦، ٩٧).

شواهد من السُّنة المحمدية:

تلك هي آيات القرآن الحكيم تحثّ على التماس العلم بمفهومه الشامل الذي يتناول الدين والدنيا كذلك؛ فإن

الأحاديث المشـيرة إلـى التزوُّد من المعـارف أيًّا كانت كثيرة كما سـبق البيـان، وإذا تأملنا الحكمة التـي وردت في الأثر: «اطلبـوا العلم ولو في الصين» وجدنا أنها تنصرف إلى العلم بمدلولـه العـام، إذ لا يسـتقيم في المنطق أن يتكبد المسـلم مشـاق الرحلة إلـى الصين، والبعد عن مهبـط الوحي وأرض الرسـالة في الجزيرة العربية ليلتمس التفقـه في الدين على أيدي قوم لم تبلغهم دعوة الرسول، وإنما القصد أن يحيط بما أوتيه أهل الصين من علوم ومعارف تصلح بها أمور الدنيا.

كما نجد مصداق ذلك في حثِّ الرسول ﷺ لزيد بن ثابت على تعلـم السـريانية إذ يقول زيد: «وأمرني رسـول اللـه فتعلمت له كتاب يهود بالسـريانية، وقال: إني والله ما آمن يهود على كتابي. قال زيد: فوالله ما مر بي نصف شهر حتى تعلمته، فكنت أكتب له إليهم، وأقرأ له كتبهم إليه»[٣٥] فالسـريانية لغة أجنبية، لا يستزيد بها المسـلم علمًـا بدينه، وإنما ينتفع بها في دنيـاه، هذا الانتفاع الذي تشير إليه الحكمة القائلة: «من تعلم لغة قوم أمن مكرهم».

وثم شـاهد آخر على المفهوم الصحيح للعلم في الإسـلام، وهو قول رسـول الله ﷺ - عندما سـئل عن النخل وتلقيحه - مـا معناه: «إن هـذا من أمـور الدنيا التي يرجـع فيها إلى التجارب والعقل، وإن الناس أعلم بأمور دنياهم».

---

(٣٥) سنن الترمذي، عن زيد بن ثابت، رقم ٢٧١٥. وقال الترمذي: حسن صحيح. (المجلة).

العلم سلاح لخدمة الدين والدولة:

وإذا تأملنــا تاريخ الدولة الإســلامية فــي عصورها الزاهرة تبينًّا أن المسلمين الأوائل كانوا على بصيرة بالمضمون الشامل للعلم، فكانوا يعرفون رســالة دولتهــم المعنوية حق المعرفة، وكانوا يعملون على خدمة هذه الرســالة بأنواع العلوم المدنية المختلفة، تدعيمًا لها، ورفعًا للوائها، وفرضًا لاحترامها؛ فتركوا لطبائعهــم أو طبائع الحياة فيهم وفي غيرهم أن تبتكر وتفيد، وتوسَّلوا بما أفادوا في خدمة دينهم دون تكلف، وأفتى العلماء باتفاق أن إقامة الحرف والصناعات فريضة على المجتمع كله يأثــم بتركها، وعلى الأفراد الصالحين لهــذه الفنون بمواهبهم ورغائبهم أن يجددوا فيها، ويخدموا أمتهم ورسالتها بها.

وصحيــح أن العرب ما كان عليهم من حرج أن يتعلموا من النــاس أنواع الخبرة التــي لم تهدهم إليهــا مطالب الصحراء ومجامــع البادية، وقد مهروا فيما وقفوا عليه، واســتغلوه في نشر الإسلام وحرب أعدائه، وكان لأبناء الصحراء فضل صناعة السفن وقيادة الأساطيل وحرب البحار.

إن العــرب بالفطــرة الصافية والانبعــاث التلقائي لخدمة الإســلام، أتقنوا هذا كلــه، ورأوا دون انتظار لنصٍّ موجّه - أن كتابهم لا يعلو في عالم يجهلون فيه شــئون البحرية، فعبدوا الله بالسيطرة على الأمواج.

شهادة التاريخ:

وفي هــذا يقول ابن خلدون: «كان الــروم مهرة في ركوب البحر والحرب في أســاطيله، ولم يكن العرب أول الأمر مهرة في ركوبه، فلما اســتقر المُلْكُ لهم وشــمخ سلطانهم، صارت أمــم العجم تحت أيديهم، وتقــرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته؛ فاســتخدموا في حاجتهم البحريــة كثيرًا من هؤلاء، وأنشأوا السفن، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح، وأسسوا دارًا لصناعــة الآلات البحرية بتونــس، ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله بن الأغلب على يد أســد بن الفرات شيخ الفتيا. ثم يقول ابن خلدون: إن المسلمين تغلبوا على لجة بحر الروم - يعني البحر الأبيض المتوســط - وإن أساطيلهم سادت فيه جائيــة وذاهبة مــن صقلية إلى تونس، والرومــان والصقالبة جميعًا تهرب أســاطيلهم أمــام البحرية العربيــة، ولا تحاول الدنو من أساطيل المسلمين التي ضربت عليهم كَضِرَاء الأسد على فريسته.

والعلوم الدينية والدنيوية التي نبغ فيها المســلمون لا تقع تحت حصر؛ إذ كانوا فقهاء في الشريعة؛ وعلماء في الفلسفة والرياضيــات، ومنهــم مــن كان يجمع بين التفقــه في الدين والعلم الراســخ في الطب، وقد ثبت تاريخيًّا أن المسلمين هم أصحاب اليد الطولى في الحضارة العالمية السائدة الآن.

واتفقت كلمــة المحققين من رجال التاريخ على أن عصر الإحيــاء في أوروبا إنما نشــأ عــن التقدُّم الحضــاري للعرب، والمواريث العقلية والخلقيــة التي تركوها في كل مكان حلّوا به، بل لقد أشــاد هؤلاء المؤرخون بأن أول مدرســة أنشــئت للطب في أوروبا هي التي أنشــأها العرب في جنوب إيطاليا، وأن أول مرصد للفلك هو الذي أقامه المسلمون في بأسبانيا.

ومن أشــهر الأطباء المســلمين الذين ابتدعوا نظريات في علم الطب نقلتها عنهم أوروبا في العصر الوســيط ابن ســينا الفيلســوف صاحب كتاب: «الشــفاء»، وكان متعدد المواهب، فإلى جانب كشــوفه الطبية توصل بالاشــتراك مــع البيروني إلى حقائق جغرافية مهمة فيما يتعلق بنشأة الجبال وطبقات الصخــور، ومن هؤلاء الأطباء ابن زهر، وابن النفيس، والرازي وابن ماسويه، وابن رشد – وقد جمع إلى الطب الفلسفة.

أمــا في ميدان الكيمياء فلقد نبــغ جابر بن حيان، وعزُّ الدين الجلدكــي، ونبغ في علم الفيزياء «الطبيعــة» ابن الهيثم، وكمال الدين الفارسي، والخازن، وفي علم الزراعة والنبات نبغ البغدادي وابن البيطار، واســتحدث العلماء المســلمون نظريات في علوم الرياضة والفلك، ومن أشهرهم الخوارزمي وثابت بن قُرَّة.

أمــا إذا ذكرت علــوم التاريخ والجغرافيــة والاجتماع، فإن قصب الســبق يعقد لابن خلدون بلا منازع؛ فهو مؤسس علم الاجتمــاع، كما يذكــر بين علمــاء الجغرافيا العالم الشــريف

الإدريسي، وفي مجال الرحلات الكشفية يذكر ابن بطوطة.

لقد هيَّأت الدعوة العلمية في الإســلام أفضل مناخ لنشــأة هــؤلاء الأعلام الرواد فــي تاريخ الحضارة البشــرية، إذ كانت تقوم على نشــر المعرفة لهداية الفرد وتقويم المجتمع، وعلى التعمق في شــتى العلوم والآداب والفنون لدعم ســيادة الدين والدولــة، وتفتح النوافذ للتيارات الفكرية الصالحة، وإفســاح المجال للأخذ من كل علم بطرف، فلا تفضيل لعالم على آخر بنوع ما يحصله من المعرفة، وإنما بإخلاصه فيه، واستخدامه في ســبيل تلبية الحاجات المشروعة للناس، ذلك أن العلم في الإسلام ســبيل لخدمة الفرد والجماعة، وتثبيت الدين وتوطيد أركان المجتمع، وتدعيم الدولة.

فأما علــوم الدين فهي تبيــن أحكامه للهدايــة إلى حقيقة العبادات، وأما علوم الدنيا فللإرشاد إلى أصلح المعاملات.

الفتوح الإسلامية أحداث ثقافية كبرى:

ولقــد أثمرت سياســة الإســلام فــي تمجيد العلــم وتكريم العلماء كحافز على اكتساب المعرفة الشاملة فيما أعقب العهد الأول للإســلام من عصور زاهرة ارتفعت فيها أعلام دولته في أقاصي العالم، وطبقت حضارته الآفاق.

والواقــع أن الفتوح الإســلامية لم تكن أحداثًا سياســية أو حربية فحســب، إذ تبلــورت في شــكلها إلى أحــداث ثقافية رائعــة، وآية ذلــك ما أعقب الفتح العربي لشــبه جزيرة أيبريا

«الأندلس» من نهضة علمية أهَّلت العقل البشــري لاكتشــاف الكثيــر من المجاهل التي لم يطرقهــا من قبل، ثم حفزت هذا العقل على التنقيب والاختراع والابتكار، وأفســحت له الطريق ليســير بأبحاثه واكتشافاته بما لم يتيسر للإنسان في يوم ما، يشــهد بذلك ما أنتجته العبقرية الإســلامية في أســبانيا تحت رعاية الخلفاء وأرباب الدولة الأموية في أعوام قليلة إذا قيست بعمر التاريخ المديد في ميدان الحضارة.

ومن الثابــت كذلك أن من العناصر الأساســية التي جعلت سرعة الفتوح الإسلامية أشبه ما تكون بالأساطير، وأن العرب كانوا يحملون لواء حضارة جديدة، تفوقت على حضارة الدول المغلوبة، فانســاب الفتح الإسلامي في طريقه كالسيل الدافق في أفريقيا وآسيا، وحطم دولتين عظيمتين كان بيدهما زمام العالــم ومصيره إذ ذاك، ثم اتجه إلى أوروبا فأمدها بحضارة إنســانية زاخرة ظل يحمل مشــعلها في جميــع أرجاء العالم عشرة قرون من الزمان.



الفصل الثاني

التخطيط للهجرة

تمهيد:

التخطيط في عالم اليوم:

إن التخطيط أمر ضروري لمزاولة أي نشـاط بشري مهما كان نوعه، يستوي في ذلك أن يكون القائم به فردًا أو جماعة، وأن يستهدف شأنًا من شئون السلم أو من شئون الحرب، حتى أصبح معلمًا بارزًا وطابعًا مميزًا لعالم اليوم، وإذا كان القرن العشرون يسمى عصر الشعوب وعصر الفضاء، كما يطلق عليه أحيانًا عصر التكنولوجيا، فإن تسميته بعصر التخطيط لا تعدو الواقع، بل إنها أقرب من غيرها في دلالتها على المضمون الفكري لهذه التسميات، والتخطيط هو عماد التقدم في شتى المجالات، ومن ثم كان الاهتمام بأبحاثه ودراساته المتطورة حتى أوشك أن يعد علمًا قائمًا بذاته، له قواعده الخاصة به.

وإذا كان التخطيط- اصطلاحًا- من مستحدثات العصر فإنه- معنى- يضرب بجذوره في أعماق القدم، فقد اقترن بحياة الفرد وحياة المجتمع منذ كان الإنسان على الأرض، فقد شاء الله -سبحانه وتعالى- أن يزوده بهذه القدرة المستمدة من العقل لحفظ الجنس البشري حتى تستمر الحياة عبر مراحل تطورها المتعاقبة، ولكن الإنسان يعمِّر الأرض في كل مكان وزمان، يأكل من رزقها وينعم بخيراتها، ويكشف أسرار الكون من حوله، ويعيش آمنًا من تحديات الطبيعة

وشــر أعدائه، مستثمرًا جهده وما بلغه علمه في سبيل تحقيق هدفه، حياة مطمئنة رزقها رغد.

ومن ثمَّ، فإن كل امرئ يباشــر التخطيط تلقائيًّا في جميع خطواته، وفي مختلف تصرفاته دون أن يدري المدلول العلمي لمــا يقوم بــه؛ فالصانع والــزارع والعامــل كل منهم يخطط ليومه وغده؛ إذ يحــدد مطالبه والتزاماته، ويحدد قدراته على الوفاء بها مستعينًا في ذلك بحصيلة تجاربه السابقة، ومقدرًا الظــروف الطارئــة المحتملة، فهــو يخطط لمأكله ومشــربه وملبسه ومسكنه، ويخطط لعمله، ويدبر أمره.

وهــو لا ينــى عن إعمال فكره في كل مــا يعن له من أمور، والتخطيــط هو ثمرة هذا الفكر، ومن هنا كان قبسًــا من نور الخالق الأعظم الذي جعل العقل أجل النعم.

ونظــرًا لأن نجــاح أي مجهــود بشــري يعتمد فــي المقام الأول علــى التخطيط الســابق ودقتــه وتوافــر عناصره، فقد اجتهد الباحثون في ســبيل تعريف التخطيط السليم وتحديد العناصــر المكونــة، اتفقــوا بادئ ذي بــدء على أنــه نقيض الارتجال والتخبط وعكس الفوضى.

ووضعوا تعريفات كثيرة له بمعناه العام، يختلف كل منها عــن الآخر في صياغــة العناصر التي يتألــف منها التخطيط، ولكنهــا جميعا تلتقي عند مضمون واحــد، ويرجع تعدد هذه التعريفــات إلى تعدد الأشــخاص الذين يتناولونه بالدراســة والتحليل، ويحاول كل منهم من وجهة نظره أن يحدد ماهيته

ومكوناتــه، ذلــك أن التخطيط ليــس علمًا من العلــوم البحتة كالكيمياء والفيزيــاء وغيرهما، فلا تحكمه مثلها قوانين ثابتة معلومــة تنطبق فــي كافة الظــروف والأحوال متــى توافرت عوامل معينة مثل ضــرورة تكوين جزيء من الماء من اتحاد ذرتين من الهيدروجين مع ذرة من الأكسجين.

ومن هنا نلاحظ أن الآراء والنظريات التي طبقها الباحثون الأوائــل في التخطيط العلمي قد تطورت وتغيرت، كما نلاحظ أن تعاريفه قد كثرت وتعددت، وســوف نورد فيما يلي بعض هذه التعريفات:

مفهوم التخطيط:

- تدبير يرمي إلى مواجهة المستقبل بخطط منظمة سلفًا لتحقيق أهداف محددة.
- عمل افتراضات عما ستكون عليه الأحوال في المستقبل، ثــم وضع خطــة تبيــن الأهــداف المطلــوب الوصــول إليها، والعناصــر الواجــب اســتخدامها لتحقيق الأهــداف، وكيفية اســتخدام هــذه العناصر، وخط الســير والمراحــل المختلفة الواجب المرور بها، والوقت اللازم لتنفيذ الأعمال.
- جمــع للحقائــق والمعلومــات التي تســاعد على تحديد الأعمال الضرورية لتحقيق الأهداف والنتائج المرغوب فيها.
- رسم وإعداد وسيلة أو خطة أو مشروع يرمي إلى إنجاز هدف محــدد، كما يرمي إلــى مواجهة ما يحتمــل وقوعه من أمور، شأنها عرقلة تحقيق هذا الهدف.

- عمليــة وضع خطة أو تطوير طريقة ما من طرق العمل أو إجــراء معيــن أو ترتيب أجزاء معينــة بقصد تحقيق هدف معين في يسر وسهولة.
- أســلوب علمــي وعملي للربــط بين الأهداف والوســائل المستخدمة لتحقيقها ورسم معالم الطريق الذي يحدد جميع القرارات والسياسات وكيفية تنفيذها، مع محاولة التحكم في الأحداث عن طريق اتباع سياســة مدروســة محــددة الأهداف والنتائج.

ونخلص مــن هــذه التعريفــات جميعًا إلــى أن المقصود بالتخطيط هو: تحديد الوســائل التــي تكفل تحقيق هدف أو أهداف معينــة، بأقل النفقات، وفي أقصــر وقت، وبأقل جهد ممكن، أي: إنه تنســيق للمراحل المســتقبلة التــي يبتدئ بها تنفيــذ عمل معين إذا أريــد لهذا العمل أن يقــوم بنجاح، وأن يتحقــق الهدف المقصود منه، وهــو لذلك يحمل معنى التنبؤ بالمســتقبل والاستعداد له، وهذا الاســتعداد يكون عن طريق دراســة الماضــي ومراقبــة الحاضــر واســتخلاص التجارب النافعــة منها، ومحاولة تطبيقها على الأعمــال المزمع القيام بها لتحقيق أفضل النتائج.

ومن الواضح أن التخطيط يجتاز عدة مراحل أولاها التفكير الذي يســبق القيــام بأي عمل، وخاتمتها اتخــاذ القرارات بما يجب عمله وطريقة الأداء ووقت التنفيذ.

فوائد التخطيط:

وتأسيسًا على ذلك فإن للتخطيط فوائد جمة يمكن إجمالها فيما يأتي:

- تحديد الأهداف بوضوح مما يكفل علم جميع الأفراد بها ووضوح الرؤية أمامهم.
- رسم الطريق وتحديد الوسائل اللازمة لتنفيذ الأهداف.
- بيـان وتقديـر الإمكانيـات البشـرية والماديـة اللازمة واستخدامها من حيث الكمية والعدد.
- المســاعدة في الوقوف على المشاكل المتوقعة، ومن ثم يمكن تداركها.
- تحديـد الأوقات المناسـبة «التوقيت» للخطـوات المراد اتخاذها والوقت اللازم لكل جزء من العمل.
- تيســير مراجعة الأعمال ومراقبة التنفيذ، وذلك بواسطة الأهـداف السـابق تحديدهـا، والطريق الذي يسـبق رسـمه ومواعيد التنفيذ التي حددت سلفًا.

إجراءات التخطيط:

وللتخطيط خصائص معينة يســهل التعرف عليها، ولاشك أن الإدراك السـليم لهـذه الخصائـص ومعرفـة العناصر أو الخطوات والإجراءات التي يجب أن يمر بها يساعد على إعداد الخطـة التي تحقق أفضل النتائـج، ومفهوم بداهة أن الخطة تنبـت أولا من مجرد فكرة تنبثق في خيـال واضعها، فإذا لم

يقدر لهذه الفكرة أن تمر بالخطوات الأساسية التي ترتقي بها إلى مســتوى الفاعلية كان مآلها الإخفــاق، ويمكن أن تحصر هذه الخطوات التي تتكون منهــا قواعد عملية التخطيط فيما يلي:

إيضــاح مــدى الحاجة إلــى الخطــة وضرورتهــا وتحديد أهدافها، فينبغي -قبل التفكيــر في وضع الخطة- التأكد من أن ثمة مشــكلة حالَّة أو مقبلة تحتاج إلى حل، وأن يُتَّخذ قرار تمهيــدي للقيام بعملٍ مــا إزاء هذه المشــكلة، وأن يكون هذا العمل المرسوم مؤديا إلى تحقيق الهدف المنشود.

إلقاء الضوء على المشكلة وأسبابها:

بعــد التأكد مــن ضرورة وضــع الخطة وتحديــد أهدافها، تأتي الخطوة الثانية وهي دراسة المشكلة من جميع نواحيها، ومعرفة طبيعتها وأسبابها وسوابقها أو الحلول المحتملة لها.

جمع المعلومات:

فينبغــي ألا توضع خطة ما إلا بعد جمــع كافة المعلومات المتعلقــة بالمشــكلة التــي تعالجهــا، والاســتئناس في ذلك بــآراء الثقات، والاســتعانة بخبــرات المختصين بهــذا النوع من المشــكلات، ودراســة كافــة المعلومــات المتعلقة بمكان المشــكلة وظروفهــا، وغير ذلــك مما يتصل بهــا، ولا ريب أن هذه المعلومات تهيئ الطريق العام أمام واضع الخطة لرســم الخطوط العريضة للسياســة التــي توصل إلى تحقيق الهدف المطلوب.

تحليل المعلومات:

بعد أن تجمــع المعلومات التي أوضحناهــا تُدرس وتحلل تحليــلًا دقيقًا وتــرد إلــى عناصرها حتى يمكن اســتخلاص الحقائق التي تصلح لأن تكون أساسًا للخطة.

حصر الإمكانيات المتاحة:

إن حصــر الإمكانيات المتاحة للخطــة ضرورة واجبة قبل البدء في التخطيط، وإنَّ قدر هذه الإمكانيات المادية والبشرية هو الذي يوجه إلى نوع الخطة، ويحدد وسيلة تنفيذها ودقته، ومن هذه الإمكانات المال والرجال والسلاح ووسائل الاتصال والانتقال.

إعداد خطط متعددة واختيار أكثرها فاعلية:

تعتبر الخطوات الخمس السابقة بمثابة الأعمال التحضيرية لوضع الخطة، فكلها تعنى بتحليل المشكلة، وجمع المعلومات عنها واستخلاص الحقائق النافعة منها.

وبانتهاء هذه الخطوات يبدأ في وضع الخطة، ويحســن أن توضع عدة خطط بديلة تهدف إلى تحقيق الغرض المطلوب، ثــم اختيار أفضل هذه الخطط مــن طريق الموازنة والمقارنة بيــن بعضهــا وبعض، ومن ميــزات وضع عدة خطــط أنه قد يبــدو عندئذ من الأصوب إدماج بعض عناصرها المختلفة في خطــة واحدة جديدة، أو أن يصبح من المحتم لظروف طارئة استبدال خطة بأخرى.

الاقتناع بأهمية الخطة:

من الضروري أن يشترك في بحث الخطة جميع المختصين والمشرفين على تنفيذها، وأن يقتنعوا بأهميتها وجدواها، كما ينبغي أن يحاطوا علمًا بأي تغيير في جزئياتها قبل تنفيذها، حتى يمكن التقليل من احتمالات إخفاقها.

الإعداد لتنفيذ الخطة:

يتطلب تنفيذ الخطة توفير حشــد القوى المادية والبشرية اللازمة لها، ثم إصدار الأوامر إلى الأشخاص المشتركين فيها، والتأكد من علمهم بموعد تنفيذ الخطة كالدور الذي يجب على كل منهم القيام به مفصلًا تفصيلًا دقيقًا.

تعديل تنفيذ الخطة:

يجــب الوقوف أولًا بأول على نتائــج تنفيذ مراحل الخطة، وفــي ضوء النتائج يمكــن تقدير ما إذا كان من المستحســن الاســتمرار في تنفيــذ الخطــة أو تعديلها أو إجــراء تخطيط إضافي لها.

اختيار الوقت والمكان:

من الاعتبارات الأساســية التي ينبغــي مراعاتها قبل تنفيذ الخطة، لما لها من أهمية بالغة في التأثير على مدى نجاحها، اختيار الوقت والمكان المناسِبَيْن للتنفيذ.

خصائص الخطط الفعالة:

يجــب أن تتوافر فــي الخطــط الفعالة الخصائــص الآتية

ضمانًا لنجاحها:

أن تكون أغراضها وأهدافها محددة تحديدًا واضحًا:

إن الخطـــة هي قاعــدة كل عمل يراد بـــه تحقيق غرض أو هدف معين، ومهما كان هذا الغرض صغيرًا أو كبيرًا، وســـواء تطلـــب الوصول إليـــه تخطيطًا طويل الأجـــل أو قصيره، فإنه يتعيـــن أن يكون الغرض واضحًا محددًا، متماســـكًا بلا تنافر أو تضارب في جزئياته، وإلا فقدت الخطة ركنها الأساسي.

أن تتميـــز الخطـــة بالبســـاطة والوضـــوح، وأن تكون اتجاهاتها مباشرة:

كلمـــا بعدت الخطة عن التعقيـــد والغموض، وكان طريقها مباشرًا، سهل إدراكها وتنفيذها، وقلَّت احتمالات إخفاقها.

أن تكون الخطة مرنة:

يجـــب أن تراعـــى مرونـــة الخطـــة، بحيث يســـهل تعديلها لمواجهـــة كل تغيير يطرأ على وســـائل تنفيذهـــا، وذلك دون تأثير في النتائج النهائية المنشودة منها.

أن تكون الخطة محكمة وفي الإمكان تنفيذها:

يجـــب أن تكـــون الخطة قـــد وضعت على أســـاس الاعتقاد الراســـخ بأنها ســـوف تحقق الغرض الذي وضعت من أجله، وألا تترك ثغرات تؤذن بإخفاقها.

أن تعد الخطة وفقًا لمقاييس عملية:

تعتبر المقاييس العملية بمثابة معيار التقدير الذي تقاس به المســـتويات اللازمة لتنفيذ أية خطة، ومن الخطأ أن يعتمد

فــي وضع هذه المقاييس على المعلومات الشــخصية لواضع الخطــة لمجرد اقتناعه الشــخصي بســلامتها، أو لأنه قد أخذ بهــا في خطة مماثلة، على أنه في جميع الأحوال ينبغي جعل المقاييس جزءًا من كل خطة.

التأكد من أن الإمكانيات المادية المتاحة تسمح بتنفيذ الخطة:

يجــب عند وضع الخطــة التأكد من أنه فــي الإمكان تدبير الإمكانــات اللازمة لتنفيذها، وينبغي أيضًا التأكد من ســلامة هذه الإمكانات ســواء أكانت وسائل انتقال واتصال أم غيرها، كمــا يجب التأكــد من أن الإمكانــات البشــرية -أي: الرجال- على مســتوى من التدريب اللائق لتنفيذ الخطة، وأن مستوى القيادات صالح لقيادة الأفراد نحو الهدف المطلوب تحقيقه.

أن يلاحظ أثر الخطة على العمليات المستقبلة:

يجب دراســة مدى تأثير الخطة على العمليات المســتقبلة للجماعة ومدى تأثير بعض العمليات الأخرى عليها.

أن تكون الخطة ضرورية:

يجب مراجعة الخطة قبل تنفيذها للتأكد من ضرورتها.

أسباب فشل الخطة:

قد تفشــل الخطــة نتيجة لعدم توافر عناصــر النجاح لها، وقد ســبق عرض الخصائص التي يجــب توافرها في الخطة حتى يكفل لها الفاعلية وتحقيق الهدف، وهناك أسباب أخرى تؤدي إلى فشل الخطة نذكر منها:

عدم الاســتعانة بالخبــراء في العمــل الإداري الذي يجري التخطيط له، فمهما كانت قدرات القائم بالتخطيط فلا بد من الاســتعانة بالخبــراء؛ ذلك أن نظــرة الإدارة تكون عادة نظرة شــاملة للأمور، ولكنها غير دقيقة في كل جزء من الجزئيات، بعكــس الخبير الذي يتعمق عادة فــي الفرع الذي يتخصص فيه ويلم بجميع نواحيه، ويشــبه ذلك بقائد الفرقة الموسيقية الذي لا بد منه لكي تعزف الفرقة لحنًا متناسقًا جميلًا، ورغم ذلك فقد لا يســتطيع العــزف الجيد علــى كل الآلات كعازفها الخبير المختص.

عدم الاستعانة بالأشخاص الأكفاء للقيام بعملية التخطيط موقنًا أن كل شــخص قادر على القيام بهــذا النوع من العمل وهذا ظن خاطئ.

عدم دقة البيانات أو المعلومات التي اعتمدت عليها الخطة أو تفسيرها تفسيرًا خاطئًا نتيجة عدم توخي الدقة في معرفة دلالاتها.

انفصــال عملية التخطيط عن التنفيــذ، ويتم ذلك في حالة قيــام جهة بعيدة كل البعد عن طبيعة العملية بالتخطيط لها، وقيام جهة أخرى بالتنفيذ.

خطة الهجرة:

إذا اســتعرضنا العناصــر المكونة للتخطيــط وهي تحديد الهدف أو الأهداف المبتغاة، وإعداد وتنظيم الوســائل اللازمة لتحقيق تلك الأهداف، ورســم أسلوب التنفيذ، ومحاولة التنبؤ

بالمســتقبل للسيطرة ما أمكن -على مسار الأحداث بما يكفل الوصول إلى النتائج- إذا اســتعرضنا هــذه العناصر الأربعة، تبينا أن الهجرة عمل مجيد قام على أساس من التخطيط وما يتطلبه من تدبير وإحكام وبُعد نظر.

فلقد حدد النبي الكريم ﷺ هدفه من الهجرة، وكان الأسلوب الــذي اتبعه في رحلته كفيلا بتحقيق هذا الهدف، فقد أعد من الوســائل البشــرية والمادية ما يلائم الظروف القائمة ويتفق مــع الظروف المحتملة، ونظم هذه الوســائل تنظيمًا مُحكمًا، ثم نفذها بأسلوب واقعي سديد، فنجحت خطته وأدرك غايته.

أولًا: الهدف والدوافع:

فأما الهدف فهو مغادرة الرســول ﷺ وأبي بكر معه مكة وبلوغهمــا المدينــة آمنين، ليســتكمل النبي ﷺ رســالته في أرض صالحة لنشــر دين الله، وكفالة حرية العقيدة، فهذا هو الســبيل لبعث الأمــن والطمأنينة في نفوس المســلمين؛ حتى لا يؤذوا بســبب إيمانهم، ولضمــان الأمن أيضًا لمن يرغب من العرب في دخول الإسلام.

ذلك كان الدافع الأساسي للهجرة، أن يؤمن المسلمون وأن يؤمن غيرهم أن من اتبع الهدى ودخل في دين الله هو بمأمن مــن أن يصيبه الأذى، وبذلــك يزداد المؤمنــون إيمانًا، ويقبل على الإيمان المتردد والخائف والضعيف.

ولقــد اســتخلص النبــي ﷺ هذا الهــدف من واقــع تجارب الماضي وعِبَره، فكان درسًا مستفادًا من تقييم تلك المرحلة التي

قضاها ﷺ في مكة والتي بلغت ثلاث عشــرة سنة متتابعة لقي فيها وصحابته العذاب ألوانًا، واحتملوا أذى قريش واضطهادهم لهم؛ لأنهم آمنوا بالله الواحد القهار، كما كان درسًا مستفادًا من قصص الأنبياء السابقين التي جاءت في كتاب الله.

فكانت غاية الرسول الأولى والأخيرة هي هذه الرسالة التي عهــد الله إليه في تبليغهــا والدعوة إليها والإنــذار بها، والتي حاربهــا أهل مكة من يــوم بعثته إلى آخر يوم لــه بينهم قبل هجرته أشد الحرب فحال ذلك دون امتلاء كل القلوب بنورها، وكل النفوس إيمانًا بها من خوف مساءة قريش وعدوانها.

فــكان لا مناص من التماس أرض أخــرى دفاعًا عن حرية الدعوة إلى الدين وتمكينًا له من الانتشار، وتأمينًا لمن اتبعوه، فليــس للمؤمن أن يخضع أو يضعف أو يستســلم إذا كان في وسعه أن يرحل إلى مكان بعيد من سلطان الظلم والطغيان،

﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾

(النساء: ٩٧)

﴿وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (النساء: ١٠٠)

وفــي الأرض منأى للكريم من الأذى

وفيهــا لمــن رام العــلا متحــول

ذلــك كان دافع رســول الله ﷺ إلى الهجــرة من مكة، فما أنبلــه وأعظمــه من دافع، لم يهاجر في ســبيل مال أو جاه أو تطلعًــا لمجد يتطاول به على عباد اللــه، لم يهاجر حقدًا على ظالميــه من أهل مكة، أو حنينًا إلى منصفيه من أهل المدينة، بــل كان دعاؤه: «اللهــم اغفر لقومي فإنهــم لا يعلمون» [٣٦]، وكانت هجرته حبًّا للبشرية بأسرها.

وكيف يكــره المقام في مكــة وهي أرض مولــده ومنبته، وملعــب صباه، ومهوى فــؤاده، حيث المســجد الحرام، وقرة عينه حيث منازل أهله وعشيرته، ومنزل وحيه حيث غار حراء.

وحبــب أوطــان الرجــال إليهمــو
مــآرب قضَّاهــا الشــباب هنالــكا
إذا ذكــروا أوطانهــم ذكَّرتهمــو
عهــود الصبــا فيهــا فحنــوا لذلــكا

فالهجرة إذن كانت تضحية وجهادًا في سبيل دعوة الحق، ولا غرو أن يخرج محمد ﷺ من مكة وهو يودعها قائلًا:

«مَــا أَطْيَبَكِ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمَــكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ» [٣٧].

ولم يهاجر رســول الله ﷺ خوفًا على نفسه، أو إيثارًا لعيش وادع هانــئ فــي المهجر، وإنما كانت هجرته حلقة في سلســلة كفاح متصل في سبيل أداء الرسالة التي ائتمنه الله عليها، رسالة

(٣٦) أخرجه البخاري في صحيحه عن عبدالله بن مسعود – برقم: ٣٤٧٧.

(٣٧) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، من حديث عبد الله بن عباس، برقم: ١٠٦٢٤.

السماء للأرض، رسالة الأمن والحرية والإخاء بين الناس جميعًا.

وكان الهــدف الذي تبلور فيه هــذا الدافع هو الوصول إلى المدينة فرارًا بعقيدته مما يتهددها في مكة، والتماسًــا لأرض جديــدة تصلح للدعــوة الكبرى التي نادى بها مبشــرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وإيمانًا بالحرية، وتأمينًا لهــا وحفاظًا عليها، حرية الدعوة إلى التوحيد، حرية العقيدة، فمــا أجله من هدف: هجرة إلــى الله، وفي ذلك يقول المهاجر العظيم ﷺ:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرتــه لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٣٨].

اختيار المكان.. لماذا يثرب؟

فلمــا أوحى الله إليــه بالهجرة، كان ســبيله إلى تحقيق ما أوحــي إليه إعمال الفكر والتدبير حتــى يضمن نجاح مهمته، ولــم يكن ثمــة بد من وضــع خطة لتوقــي العقبــات وكفالة الانطــلاق إلى الهــدف المرســوم، فــكان للهجــرة مقدماتها الضروريــة، وفي مســتهلها اختيار المكان الــذي يقصد إليه الرســول، ووقــع اختياره -عليه الصلاة والســلام- بوحي من اللــه على المدينة، لوفائها بمقصده وتناســبها مع الهدف من

(٣٨) رواه البخاري في صحيحه، من حديث عمر بن الخطاب، الحديث الأول. (المجلة).

هجرتــه، إذ كانت لديها صلة قربــى، فهؤلاء بنو النجار أخوال جــده عبد المطلب مــن قبيلة الخزرج بيثــرب، وفيها قبر أبيه عبــد الله بن عبدالمطلب الذي كانت تقصده بالزيارة أمه آمنة مــرة في كل عام، كما كان يفعل جده، ولقد زار النبي مع أمه قبــر أبيه في يثرب وهو في السادســة من عمره، وماتت آمنة أثناء عودتها فــي الطريق بين يثرب ومكة كما كان ﷺ يتجه ناحية يثرب حين يصلي جاعلًا قبلته المســجد الأقصى ببيت المقدس.

كانــت هذه هي عوامل اختيار يثرب دارًا يهاجر إليها النبي ﷺ، يضاف إليها عاملان آخران على قدر كبير من الأهمية.

أمــا العامــل الأول فهو: أن يثرب كانت فــي مقدمة مدن الجزيــرة العربيــة غنًــى بمائها وزرعهــا وثروتهــا التجارية، وعمارًا بدورها، ومنعةً بحصونها، وســيادةً وســلطانًا بأهلها من الأوس والخزرج، وكانت طريق تجارة مكة إلى الشام، ومن ثم فإن موقعها الاستراتيجي الحيوي؛ إذا أقام فيها المسلمون يهدد مصالح قريش بالخطر، إن ســولت لها نفسها التعرض للمسلمين والصد عن دين الله.

وأما العامل الثاني: فهو الأثر الروحي الذي نشأ عن جوار الأوس والخزرج لليهــود وهم أهل كتاب ودعاة وحدانية، ومن شأن هذا أن يجعل أهل يثرب من العرب أكثر استماعًا للحديث في الشــئون الروحية وفي سائر شــئون الدين من غيرهم من العــرب، وكان مــن نتائج هــذا الأثر الروحي أن أســلم بعض

أهــل يثرب بعد أن دعاهم رســول الله ﷺ إلى الإســلام حين كانــوا يفدون إلــى مكة للحج أو للتجــارة أو لالتماس الحلف من قريش، وهكذا ضمت يثرب أخوال رســول الله كما ضمت أتباعًا لدينه من أهلها.

ولقــد كان اختيــار المدينــة أرضًــا للهجــرة -فضــلا عن منطقيتــه ورجاحته لما قدمنا من عوامل وأســباب متعددة - استخلاصًا للعبرة من تجربة مريرة سابقة مر بها رسول الله ﷺ ، تلك هي مســيرته إلى الطائف يحمل بيده مشعل الدعوة للحق، وفي قلبه الدعاء في أن يهدي القوم إلى نوره الوضاء.

ذلك أنه ﷺ كان يعرض نفسه، على القبائل ليمنعوه حتى يبلغ رســالات ربــه، ولم يقبله أحــد منهم، وكلهــم كان يقول له: قومــه أعلم به، وكيف يصلحنا من أفســد قومه، فلما مات أبوطالــب اشــتد البلاء على رســول الله ﷺ، فلجــأ إلى قبيلة ثقيــف رجاء أن يئووه، وكان هذا الخــروج في ليال باقية من شوال سنة عشر من النبوة.

فوجد ثلاثة نفر هم ســادة ثقيــف وهم إخوة: عبدياليل بن عمــرو، وحبيب بن عمرو، ومســعود بن عمــرو، وكان أحدهم متزوجًــا من امرأة من قريش، ولعله لذلك؛ ولأنهم كانوا زعماء قومهم اختار الرســول لقاءهم والحديــث إليهم ودعوتهم إلى الإسلام.

وعرض النبي نفســه على أولئك الزعماء، وأعلمهم بما لقي

من قومه فقال أحدهم مســتنكرا مســتهزئا: أنا أســرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط، وقال الآخر مكذبًا: أعجز الله أن يرســل غيرك؟! وقال الثالث متحديًا مغلظًا في القول: لا أكلمك بعد مجلســك هذا، ولئن كنت رســول الله لأنت أعظم حقا من أن أكلمك، ولئن كنت تكذب على الله لأنت شــر من أن أكلمك.

وأفشــوا في قومهم ما راجعوه به، وأقعــدوا له صَفَّين من ســفهائهم وصبيتهم فــي طريقه، فلما مــر ﷺ بينهم أخذوا يرمونــه بحجارة كانوا أعدوها له من قبــل حتى أدموا عقبيه، وشدخوا رأسه، وجرحوا وجهه، وسال الدم على ثوبه، وأغمي عليــه فخلــص منهم وعمــد إلى بســتان من بســاتينهم عليه جدار، فاســتظل في ظل نخلة أو شــجرة عنــب منه، وهو في محنته مكروب تســيل قدماه ووجهه بالدمــاء، وهو يقول: ما بال أقوام خضبوا وجه نبيهم بالدم، ورفع رأســه إلى الســماء داعيًا ربه متضرعًا إليه قائلا: «اللهم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلــة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أي أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، غير أن عافيتك أوســع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشــرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك،

أو يحل عليَّ غضبك، فلك العتبى حتى ترضى»[٣٩].

وقـد بلغ من سـوء ما اسـتُقبِلَ بـه محمد -عليـه الصلاة والسـلام- فـي الطائف، وما لقيـه من أذى وإهانـة، أن هذه التجربـة ظلت ماثلة أمام عينه حاضرة فـي فؤاده: إذ حدَّثت عائشة -رضى الله عنها- قالت لرسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: لقيت من قومي ما كان أشد، وكان أشد ما لقيت منهم يوم ثقيف.

ومـن ثم، لم تكن الطائف أصلح من مكة موطنًا للرسـالة، بل كانت مثلها تربـة مجدبة لا تنبت فيها الدعوات إلى الحق، ولا تؤتـي ثمارها؛ فلتكن المدينـة إذن مقصد صاحب الدعوة ووجهته، لعل الله أن يجعل بها من بعد عسر يسرًا، وتلك آيات نجاح الرسالة فيها تشرق من بعيد.

ثانيًا: التمهيد للهجرة:

غيـر أن هذه الظروف المشـجعة على الهجـرة إلى يثرب، والحافزة علـى اتخاذها موطنًا للعقيدة ودولة للإسـلام، وقد سـاندتها بعـض التدابير التـي قام بها النبي ﷺ في سـبيل تأليـف قلوب أهل المدينة وعقد معاهدة صداقة ودفاع معهم، حتـى إذا مـا قدم بدينه إليهـم وحل مع صحبه فـي ديارهم، طـاب فيها مقامه وعز مسـكنه، وكان له مـن رجالها عوض عن الأهل، ومن بقاعهـا بديل عن الوطن الذي أكره على تركه

(٣٩) رواه الطبراني في المعجم الكبير، من حديث عبد الله بن جعفر، برقم: ١٨١. (المجلة).

والنزوح بعيدًا عنه، ووجد فيها المناخ الملائم لدعوته، والقلوب الصادقة المناصرة له.

أمــا هذه التدابير التــي قام بها النبــي ﷺ فكانت تمهيدًا، خيــر تمهيــد لتنفيذ خطة الهجــرة فهي بيعــة العقبة الأولى، وبيعة العقبة الثانية وبيعة العقبة الثالثة.

١- التحالف مع أهل المدينة:

(أ) بيعة العقبة الأولى:

ذلــك أنــه في موســم الحج كانت تقــام في مكة الأســواق المشهورة مثل عكاظ، وكان العرب يفدون على مكة من جميع أنحاء الجزيرة، وتتنزل كل قبيلة في منزل بها خاص، وقد لقي رسول الله في الموسم عند العقبة -وهي مكان مرتفع شرقي مكة على يســار الطريــق للقاصد منى من مكة- ســتة رجال من الأنصار كلهم من الخزرج، فدعاهم إلى الإسلام، فكان من صنع الله لهم أنهم كانوا من جيران اليهود، فكانوا يسمعونهم يذكرون أن الله تعالى يبعث نبيًّا قد أظل زمانه. فقال بعضهم لبعــض: هذا والله الــذي تهددكم به يهود، فلا يســبقونا إليه فأســلموا وآمنوا به وبايعــوه وقال هؤلاء القــوم: إنا قد تركنا قومنا، بيننا وبينهم حروب، فننصرف وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه، فعســى الله أن يجمعهم بك، فإن اجتمعت كلمتهم عليك واتبعــوك فلا أحد أعز منك، وانصرفوا إلى المدينة، فدعوا إلى الإسلام حتى فشا فيهم، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ.

(ب) بيعة العقبة الثانية:

وقــد واعد النبي هؤلاء الرجال الســتة الذين آمنوا برســول الله وبايعوه أن يقابلوه في الموسم القادم في نفس الموضع، فلما حل هذا الموســم جاء من المدينة اثنا عشر رجلًا، عشرة من قبيلة الخزرج منهم خمســة من الســتة الذيــن بايعوا في العقبــة الأولى، واثنان من قبيلة الأوس، وقابلهم رســول الله، وأسلموا جميعًا، وبايعوه على السمع والطاعة وهذه هي بيعة العقبة الثانية أو الصغرى.

وكانــت البيعــة ألا يشــرك أحدهم بالله شــيئًا ولا يســرق ولا يزنـــي ولا يقتــل أولاده، ولا يأتي ببهتــان يفتريه بين يديه ورجليــه، ولا يعصيه فـــي معروف فإن وفَّى ذلــك فله الجنة، وإن غشـــي من ذلك شــيئًا، فأمره إلى الله إن شـــاء عذب وإن شاء غفر.

وواضح من هذه البيعة أنهم لم يبايعوا الرسول على القتال دفاعًــا عن الإســلام، وإنما على الدخول في الإســلام، ومن ثم سمَّاها بعض كتاب السيرة بيعة النساء.

فلما انصرفوا أنفذ رسول الله معهم ابن أم مكتوم، ومصعب بن عمير يعلم من أســلم منهم القرآن وشرائع الإسلام، ويدعو من لم يســلم إلى الإســلام، فأســلم على يد مصعــب بن عمير خلق كثير من الأنصار على رأسهم سعد بن معاذ سيد الأوس، وأســيد بن حضير من زعمائها، وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشــهل في يوم واحد، الرجال والنساء لم يبق منهم أحد

إلا أســلم، حاشــا عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلي يوم أحد، فأســلم واستشهد ولم يكن في بني عبد الأشهل منافق ولا منافقة، كانوا كلهم حنفاء مخلصين -ﷺ أجمعين- ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها مسلمون عدا قلة قليلة أسلموا فيما بعد.

وقد ازداد الإســلام بعد هــذه البيعة انتشــارًا بيثرب وأقام مصعب بين المســلمين من الأوس والخــزرج يعلمهم دينهم، فلما آذنت الأشــهر الحرم أن تعود قفل راجعًا إلى مكة، وقص على رسول الله خبر المسلمين بالمدينة وما هم عليه من منعة وقوة، وأنهم ســيجيئون إلى مكة موسم حج هذا العام الجديد أكثر عددًا، وأعظم لله إيمانًا ونصرًا لأمره ولكلمة الحق.

(جـ) بيعة العقبة الثالثة:

ثم ســعى النبــي ﷺ إلى بيعــة ثالثة لا تقف عنــد الدعوة إلى الإســلام على نحو ما ظل هو يدعو إليه ثلاث عشــرة سنة متتابعــة في رفق وهوادة مع احتمال صنوف التضحية والألم جميعًا، وتكون حلفًا يدفع به المســلمون عن أنفسهم العدوان بالعدوان، وقد دعاه إلى التفكير في ذلك ازدياد أتباعه في يثرب في بيعة العقبة الأولى انتشارًا وقوة، فاتصل سرًّا بزعماء أهل المدينة القادمين للحج، وعرف اســتعدادهم وَوَفَّق رسولَ الله في مسعاه: إذ وفد على مكة في موسم الحج جماعة من يثرب بلغت عدتهم ثلاثة وســبعين رجلًا وامرأتين، منهم أحد عشر مــن الأوس، فوعدهــم النبي ﷺ أن يقابلهم ليــلًا عند العقبة،

وكتم مسلمو يثرب عن المشــركين أمرهم، وانتظروا حتى إذا مضى ثلــث الليل من يوم موعدهم مــع النبي ﷺ خرجوا من رحالهم يتســللون مســتخفين حذر أن ينكشــف سرهم، فلما كانوا عند العقبة تســلقوا الشِّــعب جميعًا وتســلقت المرأتان معهم، وأقاموا ينتظرون مقدم صاحب الرسالة، وأقبل رسول اللــه ومعه عمــه العباس بن عبد المطلــب، وكان ما يزال على دين قومه لكنه عرف من قبل من ابن أخيه أن في الأمر حِلفًا، وأن الأمر قد يجر إلى حرب، وذكر أنه قد تعاهد مع من تعاهد مــن بني المطلب وبني هاشــم أن يمنعوا محمدًا، فليســتوثق لابن أخيه ولقومه حتى لا تكون كارثة يصلى بنوهاشــم وبنو المطلــب نارها، ثم لا يجدون من هؤلاء اليثربيين نصيرًا؛ لذلك كان العبــاس أول من تكلم فقال: «يا معشــر الخزرج، إن ابن أخي لم يزل في منعة من قومه حيث لم يمكنوا منه أحدًا ممن أظهر له العــداوة والبغضاء، وتحملوا من ذلك أعظم الشــدة، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحاق بكم، وإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليــه ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم مــن ذلك، وإن كنتم مســلميه وخاذليــه بعد خروجه إليكم فمن الآن، فدعوه بين عشيرته فإنهم لبمكان عظيم».

فقــام إليه البراء بن معرور ســيد قومه وكبيرهم، وكان قد أســلم بعد العقبة الأولى وقام بكل ما يفرض الإســلام، وقال: «والله لو كان في أنفسنا ما ننطق به لقلناه، ولكن نريد الوفاء

والصدق وبذل مهجنا دون رسول الله».

واتجه الجميع بحديثه إلى الرسـول مستوضحين شروطه قائلين: «خذ لنفسـك ولربك ما أحببت» فقال: «أشـترط لربي أن تعبدوه، ولا تشـركوا به شـيئًا، ولنفسـي أن تمنعوني مما تمنعون منه نسـاءكم وأبناءكم متى قدمـت عليكم»، فقال له الهيثـم: «يا رسـول الله إن بيننـا وبين الرجال عهـودًا، وإنا قاطعوها فهل عسـيت إن نحن فعلنا ذلك أن ترجع إلى قومك وتدعنا»، فابتسـم الرسول وقطع العهد على نفسه قائلا: «بل الـدم الدم، والهدم الهـدم، وأنتم مني وأنـا منكم، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم» فبايعوه على ذلك قائلين: «بايعنا على السـمع والطاعة، في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا، وأن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم».

ويـروي المؤرخون في هـذا الصدد أن البـراء بن معرور كان أول من بايع رسـول الله ﷺ ليلة العقبة الثالثة، وقد أخذ بيده ﷺ، ثم قال عقـب قوله: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، قال: «نعم والذي بعثك بالحق نبيًّـا لنمنعك مما نمنـع منه أزرنا -أي: أعراضنـا- فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة -الدروع- ورثناها كابرًا عن كابر».

وتدل وقائع هذه البيعات الثـلاث والظروف التي اكتنفتها علـى مبلغ الإحكام في التخطيط لهـا، إذ كان نجاحها بمثابة

نجــاح لمرحلة تحضيريــة للهجرة، وذلــك أن النبي ﷺ كان يتحين الفرصة المناسبة لعقد المعاهدة حتى لا يستلفت إليه النظر، فكان يختار موســم الحج وكان المتعاهدون يخرجون من مكة حيث يغص الموســم بالجمــوع المتزاحمة إلى بقعة بعيــدة هادئة هــي العقبة، كمــا كانوا يختــارون الليل موعدا للقائهم مع رسول الله، فيتسللون واحدًا بعد آخر من رحالهم للتجمع في المكان المحدد، خلال ساعة من الليلة محددة.

ومن تمام التدبير أن رســول الله كان يدعو الرجل ممن لم يكن قد أســلم منهم إلى الإسلام متوخيًا أن يتم ذلك سرًّا ممن حضر من كفار قومه، وكان يبدأ بدعوة سادة القوم بوصفهم يمثلون القيادة التي يحتذيها سائر الناس.

وفى العقبة الثالثة اختار النبي ﷺ من المبايعين السبعين اثني عشــر نقيبًا، تســعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، مما يــدل على ســداد التدبيــر، فالنقيب هو الأميــن المصدق على طائفتــه، المطلــع علــى أســرارهم، والعارف بطــرق أمرهم، المخاطب عنهم في بعض الحالات.

وجــاء في بعض كتب الســيرة أن النبــي ﷺ قد اختار من المبايعين اثني عشــر رجلا قال لهم: «أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي».

والكفالــة هنــا تؤدي معنــى رقابة القائــد أو الرئيس على أفراد الجماعة بقصد ضمــان تنفيذ كل منهم لالتزاماته، وهو مبدأ من أهم المبادئ التي يقوم عليها علم الإدارة.

ومــن رجاحــة التخطيط أيضــا مراعاة التدرج فــي تنفيذ الخطة بمعنى إنجازها على مراحل بحسب مقتضيات الحال، أو وضع خطــط جزئية تندرج في إطار الخطة العامة، وتنفذ واحــدة بعد أخرى ذلك لأن الطفرة قــد تؤدي إلى الإخفاق في الوصول إلى الهدف المنشــود، ومــن ثم فإن المُخطِّط الكفء يضــع في تقديره جميع الظروف المحيطة، ويحدد الوســيلة المناسبة، وقد تحقق ذلك في بيعات العقبة إذ اقتصرت الأولى علــى دخول وفد اليثربيين في الإســلام، وكذلك كانت الثانية، وأضيــف إليها بعث مصعــب بن عمير إلــى المدينة مع الوفد للدعوة فيها إلى الإســلام، وقد أســلم على يــده خلق كثير مما مهد للبيعة الثالثة التي تجاوزت الدخول في الإســلام إلى عقد حلــف دفاعي بمعنى القتال مع النبي ﷺ ضد مشــركي مكة دفعًا للعدوان بالعدوان.

٢- موجات المهاجرين من المسلمين:

بَلَغ قريشًــا نبأُ الحلــف الذي عقده رســول الله مع الأوس والخزرج فغشيهم الفزع لما قد يصيبهم ذلك من أذى، ويصيب تجارتهم إلى الشام في أثناء مرور قوافلهم على طريق المدينة -حيث محمد- في ذهابها أو عودتها.

ذلك كان رد الفعل الذي أحدثته بيعة العقبة في المعســكر المعادي لرســالة الســماء، أما معســكر النور والسلام والحق فلقد ســار قدمًا فــي وجهته، لا يســتبد به ترهيــب ولا يثنيه ترغيــب، فقد حث النبي ﷺ أصحابه في مكة أن يهاجروا إلى

المدينة نجاة بأنفســـهم وعقيدتهم من أذى الكافرين، وتعزيزًا للإســـلام في الأرض الجديدة، وبدأت طلائع الهجرة تترى إلى يثــرب، مما يصح معه القول: إن هذه الهجرة شـــأنها في ذلك شأن بيعة العقبة، كانت تمهيدًا لخطة هجرة النبي ﷺ.

وكان أمر رسول الله المؤمنين أن يخرجوا من مكة متفرقين، وأن يلتزموا الكتمان، حتـــى لا يجلبوا عليهم نقمة قريش، فما أحكم التدبير والتخطيط!، وكانت المسيرة من مكة -المخرج الصـــدق- إلى المدينـــة -المدخل الصدق- في ســـبيل اللحاق بالأنصـــار محفوفة -برغم احتياطـــات الأمن- بالآلام وصنوف العـــذاب، ولكن لا ضير فـــإن الهجرة باب من أبـــواب الجهاد، فالمهاجـــر مجاهد وله أجـــره، ومن ثم قـــال العلماء في حكم الهجرة: كانت الهجرة شـــرطًا في الإسلام، فمن لم يهاجر ولا عـــذر له ومـــات على ذلك مـــات كافرًا، وقيل: بـــل كانت واجبة مؤكدة من قواعد الدين(٤٠).

كانت هجرة المسلمين إلى يثرب جهادًا حافلًا بالتضحيات، فكـــم خرج مؤمن في ظلمات الليل إلى الصحراء وحيدًا مكرهًا على ترك امرأته في مكة، وظل مقيمًا في دار الهجرة شـــهورًا امتدت أحيانًا إلى ســـنة حتى استطاعت أن تلحق به بعد ذلك،

---

(٤٠) يعنـــي في ذلك الوقت خاصة، فقد قال ﷺ بعد فتح مكة: «لا هجرة بعد الفتح» ومن ثم يتبين لك خطأ الجماعات المتطرفة التي تدعو عبر وسائل التواصل الاجتماعية بوجوب الهجرة من المجتمعات الإسلامية لأنها -في زعمهم- مجتمعات جاهلية تجب الهجرة منها كما هاجر الرسول من مكة إلى المدينة (المجلة).

كان شــأن أبي سلمة بن عبد الأســد المخزومي أول من خرج وحبست عنه زوجته، وكم تركت جماعة من المؤمنين مساكن لهــم وأمــوالًا بمكة، فعــدا عليها بــاغ من قريــش فاغتصبها بعــد هجــرة أصحابها، ذلك كان شــأن بني جحــش وقد عدا أبو ســفيان على دارهم، وذلك كان شأن هشام بن العاص بن وائل، وقد واعد عمر بن الخطاب أن يهاجر معه ففطن لهشام قومه فحبسوه عن الهجرة.

وجــن جنون العصبــة الباغية إذ عجزت عــن صد موجات المســلمين المهاجرين من مكة يحملون بــذور الدين الجديد إلى المدينة؛ ليغرســوها فــي تربتها الخصبة فيزداد شــأنهم قوة، ويصبح دينهم مصدر تهديد دائم لقريش، وتغدو المدينة بهــم مكمن خطر لقوافل قريش، ويمارس المشــركون كل ما وســعهم من ضغط على المسلمين، وكلما هاجرت موجة ممن آمنوا برسول الله اشتد غيظهم، واشتطوا في نكالهم.

وقد بلغ من ذلك أنهم لم يقفوا عاجزين يائسين إزاء هجرة رجــال مــن ذوي قرباهم وبلوغهــم المدينة آمنيــن؛ إذ هاجر عياش بن أبي ربيعة وكان أخا أبي جهل والحارث بن هشــام لأمهما وابــن عمهما، فتعقباه وأتيا إلــى المدينة حيث أدركاه وأخبراه: أن أمه قد نذرت أن لا تغسل رأسها ولا تستظل حتى تراه، فرقت نفسه وصدقهما وخرج راجعًا معهما، فكتّفاه في الطريق، وبلغا به مكة، فحبســاه بها مسجونًا، إلى أن خلَّصه الله بعد ذلك بدعاء رســول الله ﷺ في قنوت الصلاة: «اللهم

أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة والمســتضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» [41].

وخابت قريش في خداعها وإفكها كما خابت في وسائلها الأخــرى وزادهــا ذلــك حقــدًا، فتمادت فــي عدوانها شــأن المتغطــرس الباغي المهــزوم يأكله الغيظ حتــى يموت، ولا شــك أن خوف قريش علــى أموالها كان الدافــع إلى عدوانها المســتمر على المسلمين ومنعهم من الهجرة إلى المدينة، إذ كان انتشــار الإســلام نذيرًا بالقضاء علــى مصالحهم وزوال دولتهم، ولقد تمخضت هذه الأحقاد الكامنة عن رغبة وحشية فــي الانتقام ممن يشــكلون تهديدًا لهــم، والانتقام منهم في الأنفس والأموال، وتجريدهم من كل ما عســى أن يستخدموه في مقاومتهم.

ومن ذلــك أن صهيب بن ســنان -وكان ذا مال- هاجر إلى المدينة فاتبعته قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله، فلما أشرفوا عليه ونظــر إليهم ونظروا إليه، قال لهم: قد تعلمون أني من أرماكم رجــلًا، ووالله لا تصلــون إليّ أو يموت منكم من شــاء الله أن يموت، قالوا: فاترك مالك وانهض، قال: مالي خلفته بمكة، وأنا أعطيكم أمــارة فتأخذونه، فعلموا صدقــه، وانصرفوا عنه إلى مكة بما أعطاهم من الأمارة، فأخذوا ماله فنزلت فيه الآية:

(٤١) رواه البخاري في صحيحه، من حديث أبي هريرة، برقم: ٨٠٤. (المجلة).

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

(البقرة: ٢٠٧)

وظلت القافلة تسـير والكلاب تنبح، وأرض المدينة تشرق بنـور ربها وقد ازدادت خطرًا بالمسـلمين وازدادوا بها منعة وعزة

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(المنافقون: ٨)

فليجئ الحق وليزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا.

ولم يحل اضطهاد المشـركين لأصحاب الرسـول وصدهم لهم عـن الرحيل دون تتابع موجات الهجـرة حتى خلت مكة من المسـلمين، لم يبق بها منهم إلا رسـول الله ﷺ وأبو بكر وعلـيّ، أقاما معـه بأمره وحبس قومٌ كرهًا، حبسـهم قومهم، فكتب اللـه لهم أجر المجاهدين بما كانـوا عليه من حرصهم على الهجرة.

ومـن الواضـح أن أمـر النبي لأبـي بكر وعلـي بالبقاء معـه في مكـة كان تدبيرًا مـن تدابير الهجـرة وتخطيطًا لأعمالهـا، مثله فـي ذلك كعقـد الحلف مع أهـل المدينة، ودعـوة المسـلمين في مكة إلى اللحـاق بالأنصار، إذ كان ذلـك العقد، وتلك الدعوة، وهذا الأمر، مقدمات للهجرة مما يطلق عليـه في المصطلح الحديث: الإجـراءات التمهيدية التي تسبق تنفيذ الخطة.

ثالثا: الإعداد للهجرة:

مؤامرة العدو:

هـــا هي ذي المدينة تبدو على الأفق هدفًا محددًا غير بعيد، ولقد مهد المهاجر العظيم لرحلته الكبرى بما وســعه ووفقه الله إليه من تدابير، فمتى تكون بداية التنفيذ؟

لقد حانت الســاعة الموعودة إذ هاجرت الكثرة الغالبة من المسلمين، ولم يبق إلا من حبس فبقي بمكة مغلوبًا على أمره، فما مقام النبي بأرضٍ يقف أهلها لدينه بالمرصاد؟!

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (الصف:٨)

وعزم رســول الله على الخروج، وأخذ يعد لذلك الوســائل اللازمة لتحقيق الهدف، ويرســم طريقــة التنفيذ، وطرأ عامل جديد على الموقف فرض نفسه على أسلوب الهجرة وتوقيتها واقتضـــى مزيدًا مــن التدبير والإحــكام، فقــد رأت قريش أن المسلمين قد صاروا إلى المدينة، وقد دخل أهلها في الإسلام، وفشل بذلك كل ما وضعته من خطط وما ابتدعته من أساليب، وأدركت أن محمدًا لاحق لا محالة بصحبه وحلفائه في يثرب، فقالت: هذا شــر شــاغل لا يطــاق، وأخذت تفكــر فيما تفعل لتحبط ما قــام به محمد ولتمنعه من اللحــاق بأنصاره، ولما رأت أنها اســتنفدت جعبتها ولم يبق بها إلا سهم واحد عمدت إلى تجربته ويا له من سهم غادر تطلقه يد آثمة.

ولم يكن هذا السـهم إلا نسـج مؤامرة لقتـل محمد، وكان مسرح المتآمرين دار الندوة، وأشخاصها أعدى أعداء الإسلام، وهدفهـا ارتكاب أبشـع جريمة، ووسـيلتها التربص للاغتيال عمدًا في جنح الظلام بيد مجموعة [الشباب].....

وفـي تحليـل العوامـل التـي أدت إلـى هـذه المؤامرة، والملابسـات التي أحاطت بها، والمشاورات التي دارت في دار الندوة، يقول المرحوم محمد حسين هيكل:

«وإذا بقـي محمـد بمكة وحاولـوا منعه الخـروج منها فهـم معرضون إلى مثـل هذا الأذى -قطـع طريق التجارة إلى الشـام عليهم- من جانـب اليثربيين دفاعًـا عن نبيهم ورسولهم؛ فلم يبق إلا أن يقتلوه ليستريحوا من كل هذا الهم الواصـب، لكنهـم إن قتلوه طالب بنو هاشـم وبنو المطلب بدمه، وأوشـكت الحرب الأهلية أن تفشـو فـي مكة فتكون شـرًّا عليها مما يخشـونه من ناحية يثـرب، واجتمع القوم بدار الندوة يفكرون في هذا كله وفي وسيلة اتقائه.

قال قائل منهم: احبسـوه في الحديد وأغلقـوا عليه بابًا ثـم تربصوا به ما أصاب أشـباهه من الشـعراء الذين كانوا قبلـه، زهيـر والنابغة ومن مضـى منهم، حتـى يصيبه ما أصابهم؛ لكن هذا الرأي لم يلق سميعًا، وقال قائل: نخرجه مـن بين أظهرنا وننفيه من بلادنـا ثم لا نبالي بعد ذلك من أمره شـيئًا؛ لكنهـم خافوا أن يلحـق بالمدينة وأن يصيبهم مـا يَفْرَقون منه، وانتهوا إلى أن يأخـذوا من كل قبيلة فتى

شابًّا جلدًا وأن يعطوا كل فتى سيفًا صارمًا بتارًا فيضربونه جميعًــا ضربة رجلٍ واحــدٍ، فيتفرق دمه بيــن القبائل، ولا تقدر بنو عبد مناف على قتالهم جميعًا فيرضوا فيه بالدية، وتســتريح قريش من هذا الذي بدد شــملها وفــرق قبائلها شيعًا، وأعجبهم هذا الرأي فاطمأنوا إليه، واختاروا فتيانهم، وباتوا يحســبون أن أمر محمد قد فرغ منــه، وأنه بعد أيام سيُوارَى وتُوارَى دعوته في التراب، وسيعود الذين هاجروا إلــى يثرب إلى قومهــم وإلى دينهم وآلهتهــم، وتعود بذلك لقريش ولبلاد العــرب وحدتها التي تمزقت، ومكانتها التي تضعضعت أو كادت[٤٢].

خطة مضادة:

ولم يكن ثمة بد من وضع خطة مضادة لما دبرته عصبة قريــش، فلقد حــزم النبي ﷺ أمره على الهجــرة، وأعد لها مقدماتهــا وقد نما إليه نبأ المؤامــرة الدنيئة ولم يبق إلا أن يوحــي إليه الله أن يهاجر، وجاءه أمــر ربه فوضع لتنفيذه خطة تتناول عدة مراحل، أولاها: إعداد مستلزمات الرحيل. والثانيــة: الخروج مــن بيته. والثالثة: الاســتخفاء عن أعين قريش في الطريق الصحراوي بين مكة والمدينة.

أسلوب العمل: الكتمان:

وكان الأسلوب الذي اتبعه رسول الله لتنفيذ هذه الخطة

---

(٤٢) «حياة محمد»: ٢٢١، ٢٢٢. (المجلة).

هــو التكتم، ولا غــرو أن يتخذ هذا الأســلوب وهــو القائل: «اســتعينوا على قضــاء حوائجكم بالكتمــان» [٤٣]، والعدو محيط به من كل جانب، يرصد حركاته ولا تغفل عنه عينه، وهو يملــك كثرة العدد والعــدة كما يملك الحيلــة والدهاء، والمعركة فاصلة، معركة حياة أو موت لكلٍّ من الطرفين.

والتزامًا بمنهج الســرية التامة، أخفــى النبي عزمه على الهجــرة عــن أصحابه جميعًا فيمــا خلا أبا بكــر وعلي بن أبــي طالب، بــل إنه لم يحطهما علمًا بالأمــر إلا قبل التنفيذ مباشرة، أما علي بن أبي طالب فقد أسر إليه النبي في ليلة الهجــرة -وفتيان قريش يحاصرون داره في الليل خشــية فراره- أن يتسجى رداءه وأن ينام في فراشه حتى يقع في وهم المتآمرين أن الرسول ما يزال نائمًا لم يبرح داره، فإذا اســتبانوا جليــة الأمر في ضحى الغد كان هو على مســافة بعيدة عنهم، وصدع عليٌّ بالأمر.

وأمــا أبو بكر فقد خــرج النبي ﷺ إلــى داره في الثلث الأخير مــن الليل -وهو موعد غير مألــوف- وذلك في غفلة من شُــبان قريشٍ الذين كانوا ينظرون من فرجة إلى مكان نومه فيرون في الفراش رجلًا فتطمئن نفوســهم إلى أنه لم يتغير، وخرج محمد وصاحبه مــن خوخة[٤٤] في ظهر دار

(٤٣) رواه الطبراني في المعجم الصغير، من حديث معاذ بن جبل، برقم: ١١٨٦. (المجلة).

(٤٤) باب صغير في باب كبير وضع حاجزًا بين دارين، أو منفذ يكون بين دارين، أو كوة تؤدي الضوء إلى البيت. (المجلة).

أبي بكر -زيادة في الاحتياط- وانطلقا في الصحراء، وكان أبــو بكر قد أعــد راحلتيه ودفعهما إلى عبــد الله بن أريقط الذي وقع عليه الاختيار دليلا في الرحلة.

الطريق:

ومثلما أحكم رســول الله تدبيــره باختيار رفيق الرحلة، ودليلها، وخليفته في بيته، رســم مخططه على أســاس أن قريشًــا ســوف تتبعه مقتفيــة خطاه هو وصاحبــه بعد أن تعلــم بخروجهمــا من مكــة، فاعتزم أن يتخــذ الطرق غير المألوفة مســلكًا ومســارًا، وهكذا اختار الطريق الذي يتفق مع الظروف، كما اختار من قبــل المكان الذي يهاجر إليه، والزمن الذي يخرج فيه، فســار مع أبي بكر جنوبًا إلى غار ثور؛ لأن اتجاههما نحو اليمن لم يكن متوقعًا.

التخطيط في سير الأنبياء والمصلحين:

إن هذه الحضارة الإسلامية التي انتقلت بها البشرية من الظلمة إلى النور، وخطت بها أشــواطًا طوالًا في مســيرتها إلــى الأمــام، لم تكــن لتزهــر وتؤتــي ثمارها لــولا قيامها على أســاس مــن الفكر الحر المســتنير، فلا غــرو أن كان التخطيط ســبيلها، وكان عمادًا للتقدم العلمي في الإسلام؛ لأنه لا يعدو كونه خلاصة للتفكير والتدبير، وأســلوبًا للعلم الحق وللمعرفة الصحيحة. ولقد انتهج أصحاب الرســالات الســماوية أســلوب التخطيط في دعوتهــم وجهادهم، كما طبقوه في معاملاتهم وفيما اضطلعوا به من مهام وأعمال،

فأقاموا عليه نظام مجتمعاتهم سواء في المجال العقدي أو المجـال الاجتماعي أو المجال الاقتصادي، ســواء أكان ذلك في السلم أم في الحرب.

ولا غرابة في أن يخطط الرسل والأنبياء للدعوة وللعمل، لأن الأديان الســماوية جميعها تحث علــى إعمال الفكر في أحوال الطبيعة وفي شــئون النفس لمعرفة الخالق وإدراك حقيقة الوجود والموت، والإلمام بالعالم المحيط بالإنســان في ســبيل استخدامه لصالح البشــرية، فالفكر القائم على التأمـل والتجربة معًا هــو مصدر المعرفــة، والمعرفة هي أساس السلوك السوي في علاقة الإنسان بالخالق والمخلوق، وصــلاح العالــم رهن بهذا الســلوك في كل مــكان وزمان، والرابطة بين التفكير والتخطيط رابطة عضوية لا تنفصم، لأن التفكير عماد التخطيط وهو عمل مضاد للجزافية.

ومن هنا كان التخطيط ركيزة أساسية يقوم عليها الدين، وتبــدو الأهمية البالغــة لهذه الركيــزة إذا عرفنا أن التفكير الســليم هو الطريق إلــى العلم، وأن العلم هــو الطريق إلى معرفة الحق والخيــر والعدل، وهذه المعرفة كفيلة بدورها بتحرير البشرية من الباطل والبغي والعدوان.

إن الأديان الســماوية تســتهدف إعادة تشــكيل الإنسان لتحقيــق حياة أفضل عن طريق التفكيــر والتدبر والتدبير، فهــذا الطريق وحــده هو الذي يقود الإنســان إلــى الإيمان بالحقيقة، وكشف زيف الرجعية، وتحطيم صروح الطغيان

وإرساء مبادئ المساواة والعدالة بين العالمين.

والتفكير يسبق العمل، لأنه يوضح هدفه ويحدد خطواته، وبالعلم والعمل تتفتح أمام الأفراد والجماعات آفاق رحيبة، وتتفجـر الطاقات الخلاقة، وتزول المغاليق والسـدود التي تقف حائلًا بين الفرد وبين تطوير نفسه وتطوير مجتمعه وتطوير عالمه.

فإذا تأملنا سير الأنبياء والمرسلين، تبين لنا أن التخطيط المحكم كان دستورًا التزموا به في مختلف مراحل دعوتهم، التزموه في إقناع الناس بالحق، وفي فَلِّ سـلاح المضللين، كما اتبعوه في سياسـة الحكم وإدارة شـئون مجتمعاتهم، وتبين أن القدرة على وضع الخطة المناسبة موهبة أودعها الله إياهم، فالرسـل والأنبياء هم قادة البشرية، والتخطيط هو أبرز سمات القيادة الحكيمة.

الخطة الاقتصادية ليوسف ﷤:

ومن ذلـك: تلـك الخطة الدقيقـة التي وضعها يوسـف ﷤ فـي مجال الاقتصاد، لتكـون منهاجًا يهتدي به الناس ودستورًا يلتزمون به، وأسلوبًا ينظم حياتهم في معيشتهم.

ذلـك أن ملك مصر قد رأى فـي منامه رؤيا أثارت فزعه، فاستدعى أهل العلم والرأي وطلب منهم تفسيرها.

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ

﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾

(يوسف: ٤٣، ٤٤)

وكذلك أعلن وزراء الملك وعلماؤه عجزهم عن تفسير رؤياه وكان عند الملك خادم يسقيه، وكان رفيقًا ليوسف في السجن فتذكره، وذكر وصيته له أن يذكره عند سيده.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾

(يوسف: ٤٢)

فقال الخادم للملك: إن في السجن فتى يقال له: يوسف، عالم بتأويل الأحلام وتفسيرها، واستأذن أن يذهب إليه ليأتي بالخبر اليقين، فلما دخل على يوسف قال:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾

(يوسف: ٤٦)

وفسر يوسف البقرات السبع السمان والسنبلات السبع الخضر بسبع سنوات خصبة، تأتي بخير كثير يعم الأرض ومَنْ عليها إذ يفيض النيل، فتكثر المحصولات الزراعية، ويزدهر الرخاء فيسعد الناس، وفسر السبع العجاف والسبع

اليابسات بسبع سنين مجدبة تقل فيها مياه النيل، فتصاب البــلاد بالقحط، وتأتي هذه الســنوات الجدبــاء في أعقاب ســنوات الخير، فيأتي الناس على مــا تبقى من المحاصيل ولا يجدون بعدها شــيئًا، فيعم البؤس والمســغبة، ثم يأتي مــن بعد ذلك عــام يغيث الله الناس مما هــم فيه من جوع، وفقر، وتكثر الخيرات وتفيض النعم.

وطلب يوسف من رسول الملك أن يوصيه باتباع النظام الذي سوف يضعه يوســف للبلاد حتى يستطيع أن ينقذها من آثار القحط في تلك السنين السبع الجدباء فقال:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (يوسف: ٤٧ - ٤٩)

وإذا تأملنا ذلك النظام الذي نصح به يوســف عليه السلام تبينا أنه خطة طويلة المدى تســتهدف مصلحة الجميع، حتى لا يســتأثر بفائض أموال المجتمع فرد مسيطر مستبد أو قلة طامعة مســتغلة، خطة تقوم على أساس واقعي، مستفيدة مــن دروس الماضي وعِبَره، آخذة في حســبانها احتمالات المستقبل.

فها نحن أولاء نتبين خطة متكاملة استمرت خمسة عشر عامًا وازن فيها يوســف عليه السلام بين الإنتاج وتقييد الاستهلاك

والادخار وإعادة الاســتثمار، واســتطاع أن يحل بها صورة مــن صور «المعادلة الصعبة» وهي ضــرورة زيادة الإنتاج لمواجهــة زيادة الاســتهلاك، فالحل هنا هــو العمل الدائب وادخــار بعض العائد لاســتهلاكه في الســنوات التي تنذر بالقحــط، وما يســتتبعه من قلــة ثمرات الإنتــاج، وبالتالي العجز عن تلبية الاحتياجات.

إن عناصر الخطــة الاقتصادية المحكمة تتجلى في هذه الآيــات القرآنيــة بمضمون عصــري كامــل، ولا اختلاف إلا في المصطلحات التــي وضعها علماء الاقتصاد المحدثون، فالعمــل هــو الزراعــة، والإنتــاج هــو الحصــاد، والادخار والاستهلاك يعبر عنها بقوله تعالى:

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (يوسف: ٤٧)[٤٥]

(٤٥) جــاء في المنتخب في تفســير القرآن الكريم الذي وضعته لجنــة القرآن والسنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وأصدره المجلس في القاهرة (١٣٨٧هـ- ١٩٦٨م) صــ ٣٣٩ ما يأتي تفسيرًا لهــذه الآيات البينات: قال يوسف: تفســير هذه الرؤيا أنكم تزرعون الأرضــ قمحًا وشعيرًا سبع سنين متواليات، دائبــين على العمل في الزراعة، فما تحصدونه احفظــوه فاتركوه في سنبله، إلا قليلا مما تأكلونه في هذه السنين، مع الحرص على الاقتصاد. والرؤيا كما جاء في الآية السابقة: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (يوســف: ٤٦) وتتفق هذه الآيات مع ما وصل إليه العلم الحديث من أن ترك الحب في سنابله عند تخزينه وقاية له من التلف بالعوامل الجوية والآفات، وفوق ذلك يبقيه محافظًا على محتوياته الغذائية كاملة، وأن ذلك الإلهام كان لنبي من أنبياء الله وهو يوسف عليه السلام.

وإذا عقدنـــا مقارنـــة بين المفهــوم الحديــث للتخطيط الاقتصادي، وهو وضع خطة لتنظيم وتنســيق وتخصيص المــوارد وتعبئتها لتحقيق هــدف متفق عليه بتوقيت زمني يلتزم المواءمة بين الموارد وبين الأهداف -إذا عقدنا مقارنة بيــن هذا المفهوم وبين التخطيــط كما ورد في القرآن على لســان يوسف ﷺ، أدركنا تطابق المفهومين في الخطوط العامة، ومن ثم فإن الخطة التي وضعها يوســف ﷺ منذ آلاف الســنين لا تصدر إلا عن رجل ســبق عصره بفضل ما أبــداه من حصافة العقل ونضج الفكر وســداد الرأي وبعد النظــر وصواب الفهم، وهي تمثــل الصفات التي ينبغي أن تتوافر فيمن يتصدى لمسئوليات التخطيط.

فلا غرو أن يدعو الملك يوسف ﷺ ليتقلد منصب وزير مالية مصر واقتصادها فيلبي يوسف تلك الرغبة، ويستجيب لحاجة البلاد إلى كفاءته وذكائه، وسياسته وحكمته، وحسن تصرفه في الأمور، وتدبيره لشئون الرعية، ويضرب يوسف المثل الرائع للمخطط الكفء إذ يشرف على جباية الأموال، وتنمية الثروة، ومضاعفته الدخل، ومبادلة الســلع، وزيادة الإنتــاج وإتاحة فرص العمــل للأيدي العاطلة، واســتثمار جميع الجهود والثروات.

التخطيط أساس النهضة الإسلامية:

وجاء الإســلام فــكان رســالة الدين القائم علــى حقائق الحياة والمســتهدف هداية الفرد إلى طريق الحق وإصلاح

المجتمع في كافة جوانبه، ولم يكن ثمة سـبيل إلى تحقيق هذه الغاية إلا العلم، فلا جرم أن يعدو العلم -كما بينا فيما سـبق- ركنا ركينًا في المجتمع الإسـلامي، ولما كان العلم والتخطيط صنويـن متلازمين، فـإن التخطيط يعد بدوره أساسًا من أسس هذا المجتمع.

والإسـلام دين ودولة، وإذا كان الدين يقـوم على الفكر المتحرر من الأوهام والخرافات، فإن دولة الإسلام تتخذ من الفكر عمادًا لنهضتها، ولهذا كان التخطيط منهجًا أساسـيًّا لها.

وليس أدل على ذلك مما أجمع عليه الباحثون والمنصفون على اختلاف عقائدهـم من أن التغييرات الفكرية والعلمية كانت الدعامة القوية التي اسـتندت عليها الدعوة الإسلامية فـي الوصول إلى هدفهـا، وهو إقامة مجتمـع جديد يقوم على ربط الأرض برسالة السـماء من طريق صلاح النفس وصـلاح المجتمـع -كما ذكرنا آنفـا- كما كانـت الدعامة القوية التي قامت عليها الدولة الإسلامية في عصور ازدهار الإسلام.

والإسـلام هو ديـن العمل، فالعمل واجـب على كل فرد، وهو قيمة أساسـية في نظام الإسلام، شـأنه في ذلك شأن سـائر القيـم التي يدعو الإسـلام إلى اعتناقهـا، وهو أصل يتفـرع منه كثيـر من المثل العليا، لأنه السـبيل إلى تحرير النفوس من ذلة المسـألة والاعتماد علـى الغير، بمعنى أنه

السـبيل إلى تكوين الشـخصية المستقلة، شـخصية الفرد وشخصية الأمة.

ولا يمكـن تصور العمـل بغير تخطيط لـه، ولذلك كان التخطيط أساسًـا في الإسلام، سـواء على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع أو على مستوى الدولة.

وتأسيسًـا على ذلك، فـإن التخطيط كان أحد الأسـباب الجذرية التـي أدت إلى تثبيت عقيدة الإسـلام القائمة على العلم والعمل، وانتشـار حضارته في معظـم أنحاء العالم، وكان حجر الزاوية في البناء الفكري الإسـلامي سـواء في المجـال العقـدي أو المجال الحضاري، فلا غـرو أن نعده أساسًـا لما بلغه المجتمع الإسـلامي من تطور شـامل في مجالات الإدارة والاجتماع والاقتصاد والحرب وغيرها.

التخطيط تكليف للكافة بحكم القرآن:

إن التخطيـط هـو إعداد العدة للمسـتقبل، والإسـلام إذ يشـرع قواعده ويرسـي قيمه ومثله، إنما يرمي إلى تحقيق مسـتقبل أفضل للبشرية، وشـعاره في ذلك: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا»[٤٦].

لذلك فقد دعا الإسلام إلى الأخذ بالتخطيط وجعله نظامًا لحياة المسـلمين؛ لأنـه ضرورة لا غنى عنهـا، والحث على

---

(٤٦) أخرجه ابن قتيبه في غريب الحديث: ١/٢٨٦، وابن أبي الدنيا في «إصلاح المال»: ٣٢٤، كلاهمـا عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: «احـرث لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا» (المجلة).

التخطيط أمر صريح ينص عليه قوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾

(الأنفال: ٦٠)

وبهذا الأمر يدخل التخطيط في نطاق التكليف الموجه إلى الكافة.

التخطيط في السنة:

قال رسول الله ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا»[٤٧].

والمتأمل في معنى هذا الحديث الشريف يدرك المنزلة الرفيعة التي خص بها النبي ﷺ التخطيط، فليس ثمة دعوة إلى انتهاج التخطيط أبلغ من هذه الدعوة، إذ يستفاد من مضمون الحديث أن التخطيط للعمل واجب على المسلم بغض النظر عما إذا كانت فائدته ستعود عليه شخصيًّا أو لا تعود، فالمسلم الحق هو الذي ينجز العمل الذي استعد له من بدايته إلى نهايته طالما وسعه ذلك، لا ينظر إلى منفعته الخاصة وإنما ينظر إلى قيمة العمل ذاتها.

إن رسول الله ﷺ يحث المسلم الذي انعقد عزمه على غرس نخلة، وأعد عدته لهذا العمل، فجهز البذرة واختار بقعة الأرض المناسبة للغرس، ولكنه لم يكد يدخل فى

(٤٧) رواه البخاري في الأدب المفرد، من حديث أنس بن مالك، برقم ٤٧٩. (المجلة).

مرحلــة التنفيــذ حتى ظهــرت علامات يــوم القيامة -وهي النهايــة المحتومة للحياة الدنيا- إن الرســول الكريم يحث المســلم في هذا المقام علــى إتمام الخطة التــي أعدها إن استطاع ذلك، على الرغم من أنه لن يستفيد هو أو غيره من الجيل منها كما يبدو من ظاهر الأمر.

ويُحفّز النبي المســلم على الاســتجابة لتلــك الدعوة بما ســوف ينالــه من أجر علــى فعله ذلك، ولا شــك في أن هذا الحفز دليل على الأهمية البالغة للمبدأ الذي يشــرعه رسول الله -عليه الصلاة والسلام- وعلى التزام المسلمين به.



الفصل الثالث

التنظيم في الهجرة

تمهيد:

يحظى التنظيـم بالأهمية المتزايدة التي أصابها التخطيط، إذ إنهمـا -من حيث موقعهمـا في الحضارة الحديثة- أشـبه بوجهيـن لعملـة واحـدة، وهو يعد فـي مقدمة الفـروع التي ينظمهـا علم الإدارة العامة، الذي تشـعبت دراسـاته وتعددت فروعـه، بحيث أصبـح كل فرع منهـا يكاد يؤلف علمًـا قائمًا بذاتـه، ونظرًا لأهميـة التنظيم فإن بعض العلمـاء والباحثين يسـتخدمون كلمتي «التنظيم» و«الإدارة» كلفظين مترادفين، ويرجـع ذلك إلى أن التنظيم هو الأداة التي تسـتخدمها الإدارة لتنفيذ سياسـتها، وهو بهذا المعنى لـب الإدارة وجوهرها، إذ لا يتصـور قيام الإدارة الرشـيدة بغير أداتهـا، وطالما وجدت مجموعـة من الأفـراد فلا بد أن يكون هناك تنظيم، ولسـهولة إيضـاح معنى التنظيم يمكن القول بـأن تعريفه لا يخرج عن المعنى الدارج للكلمة نفسها، والتي تدل على وضع كل شخص في مكانه، وترتيب كل شـيء في مكانه، مع ربط الأشـخاص بعضهم ببعض، والأشـياء معًا من أجل خلق انسـجام وتوافق عام.

تعريف التنظيم:

ويعـرِّف بعض العلمـاء التنظيـم بأنـه: تجميع جهود الأفراد الممثلين للقوى البشـرية العاملة وفقا لصلاحياتهم وقدراتهـم ومواهبهم وتخصصاتهم المختلفة، ثم تنسـيق

هذه الجهــود داخل الهيئــة التي تجمعهم، لتيســير مهمة الإدارة وتمكينها من رفع كفاءة العاملين، وتحقيق الهدف المشترك.

كمــا يُعــرَّف التنظيــم بأنه اتحــاد مجموعة مــن الأفراد لتحقيق هدف مشــترك، عن طريق حصــر وترتيب وظائف الجهــاز الإداري الــذي يعمل لإنجــاز غاية معينــة، وتحديد الســلطات والمســئوليات الخاصة بالأفراد الذين يمارسون هذه الوظائف.

وثمــة تعريف آخــر للتنظيــم وهو أنــه: ترتيــب العلاقات المتبادلــة بين الجماعــات والأفراد الذين يتعاونــون معًا على مســتويات مختلفــة فى هيئــة معينــة، لتحقيق غــرض عام، وتربطهم سلســلة من الروابط الهيكليــة والوظيفية المختلفة، والقصــد مــن وراء ذلــك هو ضمان أكمــل اســتخدام للموارد الماديــة والبشــرية المتاحة، وكذلك الحد ما أمكن من أســباب استنفاد الجهود وضياعها سدى.

ومــن تعريفــات التنظيــم أنــه: ربــط جهــود وإمكانيات الأشــخاص والجماعــات الذيــن يقومون بعمل مشــترك بغية تحقيق الأهداف المرجوة بأقل جهد وأوفر إرضاء لأولئك الذين يؤدون هذا العمل، والذين يؤدى العمل من أجلهم.

كمــا عرفه بعض علمــاء الإدارة بأنه: يــدل على معنى أكثر مــن الجهــاز الإداري للمؤسســة، فهــو ليس الجهــاز الإداري

فحسب؛ بل هو جســم ينبض بالحياة ويقوم بجميع الوظائف التــي يتطلبها العمل من دورة دموية ونبض وضربات وتنفس وحركة وحيوية للوحدة التنظيمية.

ويمكــن أن يعرف التنظيم فــي النهاية بأنــه: التصميم أو الإجراءات التي تتخذ بغرض تحديد الســلطات والمســئوليات وتنظيم العلاقات حتى يتسنى للأفراد أن يعملوا عملًا مشتركًا بتناسب كامل وانسجام تام؛ لتحقيق الهدف المنشود.

فوائد التنظيم:

لا شــك أن للتنظيم أثــره الفعال في أداء العمــل وتنفيذه وتحديــد اختصاصاتــه، وكذلــك تحديد المســئولية عن هذه الاختصاصــات تمكن من الإشــراف علــى التنفيــذ، ومتابعة نتائجه، وتقدير مدى كفاءة وســائل أدائه، الأمر الذي ييســر علــى الهيئــة القياديــة أن تباشــر أعمالهــا، فــي التخطيط والإشــراف والتوجيه وتدارك الملاحظــات، وعلاج المصاعب وحل المشــكلات التي تعترض تنفيذ خطة العمل، سعيًا وراء بلوغ أقصى درجات النجاح.

ويمكن تحديد فوائد التنظيم في النقاط الآتية:

- يقلــل من الاحتــكاك والتضــارب بين الأشــخاص، وذلك بتحديده للمسئوليات والســلطات تحديدًا دقيقًا واضحًا يكفل لكل فرد معرفة الحدود التي لا يجوز له تجاوزها، وكذا الحدود التي يلتزم غيره بالعمل بها.

ـ يجعـل المجموعة تعمل في تناسـق كامل وبتعاون كبير لتحقيق الهدف.

ـ يكفل الاسـتخدام الأمثـل للطاقات البشـرية والإمكانيات المادية.

ـ يشـيع حالـة من الرضـى والارتيـاح في نفـوس جميع المشتركين في الجهد الجماعي.

ـ يمكـن من الرقابة الفعالة على جميع الأعمال ومحاسـبة كل في حدود اختصاصه.

ـ يكفـل الاسـتفادة من التخصـص، وذلك بوضـع الرجل المناسب في المكان المناسب.

ـ يكفـل التوجيه الدائم للأفـراد، وتصحيح الانحرافات في حينها، نظرًا لما يتطلبه من ضرورة النظر في نطاق الإشراف الملائم لكل مشرف.

مبادئ التنظيم:

اسـتقر علماء الإدارة على أن من أهم مبادئ التنظيم وطرق العمل تحديد وتعريف السياسـة التـي يلتزم الجميع بتنفيذها وإعلانها لهم، وتقسيم العمل وتخطيطه ووضع برامج تنفيذه، وضرورة اقتران المسئولية بالسلطة المناسبة لها، وعدم جواز تلقي الفرد الواحد أوامر من أكثر من رئيس، وتنظيم العلاقات بين العاملين، وتوفير القيادات الرشيدة، وتحقيق التنسيق بين جميع التنظيمات من الأفراد.

فإذا أردنا إنشـــاء مشــروع فــإن خطــوات العمل التي ينبغــي أن نتبعها لحســن تنظيم هذا المشــروع وضمان نجاحه هي:

أولًا: تحديد الهدف أو الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها.

ثانيًا: تحديد مكونات ذلك المشروع.

ثالثًا: بيان خطوات السلطات وحدود المسئوليات فيه.

وتتــم الخطــوة الثانيــة على مراحــل تبدأ بمرحلــة اختيار الأفــراد الذين يقومــون بالأعمــال المؤدية إلى بلــوغ الهدف، وإسناد العمل المناسب إلى كل منهم بحسب قدراته وخبراته، أو بعبــارة أخرى: تقســيم العمل بينهم وفقًــا لتخصصاتهم، وتحديد ســلطاتهم وواجباتهم ثم توجيههم والإشــراف عليهم لكفالة ســيرهم في الطريق الصحيــح بأعلى قدر من الكفاءة، والتزامهم بالتوجيهات وتعاونهم فيما بينهم، ومن أهم واجبات رب العمل في هذا الصدد توعية الأفراد بدور كل منهم منفردًا، ودورهــم مجتمعين في ضوء الرســالة المنوط بهم القيام بها، ورفع معنوياتهم وإثارة حوافزهم، وحسن معاملتهم، ومكافأة المجد منهم، وإرشاد المخطئ إلى مواضع خطئه ليتَّقيها فيما بعد.

أمــا الخطــوة التاليــة لتنظيم الدعامــة الإنســانية أو القوة البشرية فهي إعداد وتنظيم القوة المالية والمادية، ويعنى بها الأموال والموارد والآلات اللازمة للمشروع.

عوامل نجاح التنظيم:

هناك عـدة قواعد يجـب مراعاتها فــي التنظيم حتى تكفل له النجاح:

أ ـ الملاءمــة: يجب أن يكون التنظيم ملائمًا تمامًا للعملية المــراد القيام بهــا، ويجب أن تدرس كل عمليــة من العمليات المــراد القيام بهــا بوضوح، وهذا تكفله الخطوة الســابقة من خطوات الإدارة.

ب ـ الواقعيــة: يجـب أن يكـون التنظيـم واقعيًّــا، ومــن الميســور تطبيقــه وتنفيذه على ضوء ظــروف كل عملية على حــدة، فالاعتماد علــى النظريــات وحدها فى هــذا المجال قد يعرقل التنظيم عند تنفيذه.

جـ ـ الشــرعية: يجب أن يتمشــى التنظيم مــع القوانين والقيم التي تحكم المجتمع.

د ـ البســاطة والوضوح: يجب أن يكون التنظيم واضحًا حتى يســهل لكافة الأفراد المشتركين في العمل فهمه، ويجب أن يكون بســيطًا في مســتوى إدراك أقل الأفــراد في الجماعة ثقافة وعلمًا حتى يحظى بقبولهم.

تلك هــي أصول التنظيم العلمي ومبادئه وضمانات نجاحه كما حددها العلماء والباحثون في هذا العصر، ويســتبين منها أن جوهر التنظيم هو تنسيق الجهود وتوزيع العمل، فهو يحدد الخطوات التــي ينبغي اتخاذها كما يتناول العنصر البشــري

واضعًــا له النظام الــذي يكفل تحقيق الخطــة المحددة، وإذا لاحظنا تلك المبادئ الأساســية في الإسلام أدركنا سر اهتمامه بالتنظيم بوصفه الوســيلة المثلى لإدارة شــئون الجماعة على النحو الذي يكفل تحقيق غايات الإسلام ومقاصده.

إن ســر نجاح الإسلام في نشــر معتقداته هو قدرة الطلائع من قادته على تشــكيل الصفــوف وتعبئة الجهود في ســبيل إنجــاز الهدف الذي اتفق عليه المســلمون، وهو إقامة مجتمع متماسك يقوم على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنشاء دولة تقوم على الحق والمساواة والعدالة.

ولقــد اهتدى هــؤلاء القادة الأعــلام بهدي رســول الله ﷺ فســلكوا مســلكه في تنظيم المســلمين وإدارة شــئونهم على أساس قواعد سليمة محكمة.

فالنظام أساس في الإسلام؛ لأن غايته هي الارتفاع بمستوى الإنسان فكريًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، ولا سبيل إلى هذه الغاية إلا بتنظيم القوى الإنســانية تنظيمًا سديدًا يحدد فيه موقع كل فرد من الجماعة التي ينتمي إليها، ويحدد الدور الذي يضطلع بأدائه، ويوضح حقوقه وواجباته.

ولقد انتصر الإســلام في مواقعه الكبرى ضد أعدائه بفضل حشــد الطاقات البشــرية التي يملكها على أساس من التنظيم الإداري الســليم، فثمة هدف مرسوم معلن للجماعة، هو تثبيت أركان الدولة الإسلامية الناشئة، وثمة قيادة قادرة على تحريك

الجماعــة نحو تحقيق هذا الهدف والأســلوب الذي اتبعته هذه القيادة، هو التنظيم بما يتضمنه من ترتيب للجهود وتنســيق بينهــا، وتــدرج للســلطات علــى قدر المســئوليات، وتقســيم للأعمال تقسيمًا يقوم على أساس وضع الشخص في موضعه الصحيح، ورفع روحه المعنوية.

الهجرة عمل جمعي منظم:

فــإذا درســنا هجــرة النبــي ﷺ فــي وقائعهــا المتتابعة المتكاملــة، تبين لنــا أنها عمل جمعي هــادف تتوافر فيه تلك الأصــول والمبــادئ والضمانــات، وأن جميع الخطــوات التي اتبعها محمد رسول الله ﷺ تتسق مع خطوات العمل بحسب مفهوم علم التنظيم، وطرق العمل الحديث، وأول ما يســترعي النظر في هذا العمل الديني الإنساني الذي يمثل مرحلة انتقال كبرى في الإســلام وحدثًا من أجلِّ الأحداث في تاريخ الديانات والحضارات، أن رســول الله ﷺ لم يقم به منفردًا، إذ شــاءت إرادة اللــه -عــز وجل- أن يقوم بــه متعاونًا فــي ذلك مع قلة من الرجال والنســاء، وكان سبحانه قادرًا أن يجعله وقفًا على رســوله -صلوات الله وســلامه عليه- لا يســانده إلا عون الله وتأييــده، ولعــل الحكمة الإلهية فيما اختــاره لصفيه من عمل جمعــي لا فــردي أن يكون ذلك نواة للعمل في ســبيل إنشــاء المجتمع الإســلامي الكبير في الجزيرة العربية، ثم في ســائر أنحــاء العالم، لمــا يتطلبه هذا الهدف من قــدرة على التنظيم

لا تتأتــى إلا بالتدريــب واكتســاب الخبرة من خــلال التجارب العملية.

الاختيار وتقسيم العمل في الهجرة:

ولمــا كان تنظيــم الجماعــة يعتمد فــي المقــام الأول على قاعدتين:

أولاهما: حسن اختيار الأفراد المنوط بهم التنفيذ.

والثانيــة: وضــع كل منهــم فــي الموضع الــذي يتفق مع موهبته وقدرته. فســوف نتناول فيما يلي شخصيات أصحاب رسول الله ﷺ ومعاونيه في الهجرة للتدليل على توافر هاتين القاعدتين.

اختيار أبي بكر:

فلقد اختار رســول الله ﷺ لمرافقته في رحلته الكبرى أبا بكر الصديق دون سائر أصحابه ﵃، فكان اختيارًا موفقًا أجل توفيــق، لأن أبا بكر كان أصلــح الصحابة للقيام بهذه المهمة، كمــا أن هــذه المهمة لم تكن تصلــح إلا به، وتاريــخ أبي بكر قبل الإســلام وبعده يؤيد هذه الحقيقة، ويرشحه لهذا الاختيار النبــوي؛ فلقد كان قبل أن يدخل الإســلام مثالًا لحســن الخلق وحــب الخيــر والعطف علــى المحتاجين، ومن أجــل ذلك كله احترمه النــاس... وعظَّموه وجعلوه موضــع ثقتهم وإجلالهم ومشــورتهم، وكان صاحبًا للنبي ﷺ قبل رســالته، وكان كل منهما يعز الآخر ويخلص له، فلما نزل الوحي على سيدنا محمد

كان أبو بكر أول رجل تحدث إليه النبي بما أوحي إليه، ودعاه إلى عبـادة الله بعده، فلم يتردد أبو بكـر لحظة واحدة، وآمن بمحمد وصدقه، فكان أول رجل دخل الإسلام، ولم يشاركه في هذا السبق غير علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- ولما أسلم أخذ يحبب الإسـلام إلى أصدقائه ويدعوهم إلى الإيمان بمحمد وعبادة الله وحـده وترك عبادة الأصنام، فاسـتجاب له رجال لهم مكانتهم العظيمة، وشهرتهم الواسعة في طريق الإسلام.

أسـلم: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن ابن عوف، وسـعد بن أبي وقاص، هؤلاء وغيرهم أسلموا اقتداء بأبـي بكر، ثم كانوا قـدوة لغيرهم، لتتابع النـاس من بعدهم يدخلـون في دين الله يؤمنون برسـالة محمـد -عليه الصلاة والسـلام- فكان ممن أسـلم: أبو عبيدة بن الجـراح، وعمر بن الخطاب، ثم أسـماء وعائشـة، بنتا أبي بكر، وكان إسـلامهما دليلًا على تحمس أسرة أبي بكر لدين محمد وهديه القويم.

فلا غـرو أن يكون أبو بكر وقد سـماه النبي الصديق؛ لأنه أول مـن صدقـه من الرجـال حين دعاه إلى الإسـلام أنسـب أصحابه لصحبته في مسـيرته العظمى من مكة إلى المدينة، ذلك التناسـب بين العمل والرجل الذي تشـهد بصحته ودقته صفـات أبي بكر، فلقـد كانت هذه الصفـات تتفق مع طبيعة العمل الذي يرشحه له الرسول، وهو الإعداد للهجرة ومرافقته فيهـا، أجـل، كانت ملامح شـخصية الصديق تؤهلـه أكثر من

غيــره لهذا الدور الخالد في تاريخ الإســلام، دور الشــريك في الجهــاد والرفيق في رحلة الخلاص من اضطهاد المشــركين، وكانت أهم هــذه الملامح أن أبا بكر كان أعظم الناس إخلاصًا وحبًّا لرســول الله وجدارة بثقته، وأهلًا للشــرف الذي أسبغه عليه شرف صحبته، ولا شك أن التجاوب بين رجلين واتفاقهما في المنازع والأهداف، وتفانيهما في ســبيل أداء الرسالة التي اؤتمنا عليها هي الضمان الأكيد لنجاح هذه الرسالة.

تلك هي عوامل اختيار الرســول لصاحبه في الهجرة، وثمة عامل آخر يضاف إليها وهو شــجاعة أبــي بكر وقوة احتماله، وغير ذلك من صفات الثبات والجلد وكتمان الســر، والتضحية بالنفــس والنفيــس التي تقتضيهــا مثل هذه المهمة الشــاقة، ويتطلبهــا مثل هــذا الموقف البطولي، فضلًا عــن القدرة على إعــداد متطلبات الرحلة من وســائل الركــوب وغيرها، وتقديم القوة البشــرية التي تمثلت في أولاده وخادمه، وليس بدعًا أن تتكامــل تلك المناقب والقدرات في شــخص الصديق ﵁ وهو الذي صدّق الرسول حين أخبره بأن الله أسرى به من المسجد الحرام إلى المســجد الأقصــى، وقد كذبه كثير من قريش حين قالوا لأبي بكر: «صاحبك يحدث الناس في المسجد، ويزعم أن أســري به إلى بيت المقدس، وكيف يذهــب إلى بيت المقدس ويرجع إلى مكة فى ليلة واحدة؟».

فقال لهم أبو بكر: «والله إن كان قاله لقد صدق، وما العجب

في ذلك؟! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ينزل عليه من السـماء إلـى الأرض سـاعة من ليل أو نهـار فأصدقـه إذا أخبرني أنه أُسـري به ليلًا من المسـجد الحرام إلى المسجد الأقصى».[٤٨] فقال النبي: «أنت الصديق يا أبا بكر».

وأبـو بكـر هو الذي دافع عن رسـول اللـه ﷺ في المحنة كمـا لم يُدافع عنه أحد من قومه، مُعرِّضًا نفسـه لنقمة قريش واضطهادهـم، واضعًا مالـه الوفير وجاهـه العريض وحياته موضع التهديـد، قائلًا حين رأى بعض الكفار يسـخرون من النبي ويستهزئون به، ويقوم نفر منهم فيلتفون حوله يلومونه أن عاب دينهم وسفّه عقولهم وحارب أصنامهم، ويجذبونه من ردائـه جذبة قويـة، ويلفون ثوبًا حول عنقـه ويخنقونه خنقًا شـديدًا، هنالك أشـفق أبو بكر على صاحبه رسـول الله، وعز عليه أن يعذب على هذه الصورة، فنهض مسرعًا ودفع الكفار عن النبي، وحـال بينهم وبين تعذيب الرسـول وإيذائه، وقال وهو يبكي برًّا بالرسول وشفقة عليه:

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾

(غافر: ٢٨)

هـذا هو الصديق العظيم أبو بكر الذي نزل فيه قوله تعالى إذ حـرر الأرقاء فأعتق مَـن أعتق من صغار القوم لا يريد بذلك -كما قال- إلا وجه الله تعالى ورضاه:

(٤٨) أخرجه البيهقي في: «دلائل النبوة»: ٢/ ٣٦٠ (المجلة).

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ (الليل: ٥-٧)

فلـم يكـن من المسـتغرب إذن أن يختاره رسـول الله ﷺ لمشـاركته تجربـة الرحلة العُظمـى من مكة إلـى يثرب، كما اختار موسى أخاه هارون ليشد الله به أزره ويشركه في أمره، وكانت الحكمة من وراء هذا الاختيار هي ملاءمة الصديق لهذه التجربة من جانب، ومكافأة له؛ إذ ينال هو الشرف وتلك النعمة وما يكتب لصاحبها عند الله من أجر، وفي تاريخ الإسـلام من درجة رفيعة من جانب آخر.

وفي رأيي أن هذه المشـاركة كانـت تأهيلًا وتدريبًا لأبي بكر على خلافة الرسـول ﷺ ... وليس كمثل الهجرة حدث عامـر بالدروس المفيدة في الحاضر والمسـتقبل، واختيار الرسول أبا بكر للقيام بتلك المهمة الجليلة إيحاء للمسلمين بأنـه أصلح الصحابة لخلافتـه ﷺ، وحثٌّ لهم على اختياره لاسـتكمال رسـالة الإسـلام بعد أن يختار الله الرسول إلى جواره، ومثل هذا ما فعله الرسول حين أناب عنه أبا بكر ليؤم المسلمين في الصلاة حين أقعده عنها المرض، وأحس بدنو الأجـل، فإن اختياره ﷺ للصديـق دون غيره من الصحابة في هذا المقام إشـارة إلى أنه الأصلح والأجدر، واسـتخلاف له على أمة الإسلام.

ونظـرًا لمـا اقتضته خطة الهجـرة من تكتم ومـا اقتضته

فــي الوقت ذاته مــن إعلام أبي بكر ليعد لهــا العدة، فلقد أبلغ الرســول الأمر إلــى أبي بكر تلميحًا لا تصريحًــا، وذلك أنه لما أذن لأصحابــه أن يهاجروا من مكــة إلى المدينة طلب أبو بكر منه أن يأذن له في الهجرة، فقال رســول الله: «لا تعجل يا أبا بكر، لعل الله يجعل لك صاحبًا»(٤٩).

وفهــم أبو بكر من هذه الجملة أنه قد يصاحب الرســول في هجرته فاســتعد، وجهز راحلتين تنقلانه هو والرســول إلــى المدينــة، فلما أذن اللــه للنبي بالهجــرة وأخبر أبا بكر بذلك، فاضت دموع الصديق من فرط الســرور وأخذ يقول: «الصحبــة يا رســول اللــه الصحبة يا رســول اللــه»، فقال الرســول: «الصحبة يا أبا بكر»(٥٠) فبكى أبو بكر من شــدة الفرح، وخرجا ســرًّا في ظلام الليل، وســارا يقطعان عرض الفــلاة حتى اختبآ ثلاث ليال بغار في جبل ثور، وهنا نلتقي بآية من آيات الحب العميق الذي ربط بين قلبي الصاحبين؛ فلقد جد الكفار في البحث عن محمد وصاحبه إلى أن وقفوا على باب الغار، فقلق أبو بكر خوفًا على حياة الرسول وقال له: «لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا»(٥١).

فقال النبي: «يا أبا بكر، لا تحزن إن الله معنا، يا أبا بكر ما

---

(٤٩) المعجم الكبير للطبراني، رقم ٤٦٢. (المجلة).

(٥٠) سيرة ابن هشام ١/٤٨٥. (المجلة).

(٥١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/٤٨٠. (المجلة).

ظنك باثنين الله ثالثهما»[٥٢].

فهــدأت نفس أبي بكر، وعاد إلى قلبه الاطمئنان، وفي ذلك نزل قوله تعالى:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(التوبة: ٤٠)

وهكذا يضع محمد ﷺ الرجل المناسب في المكان المناسب باختياره أبا بكــر رفيقًا له في الهجرة من قبل أن يضع علماء التنظيم الإداري تلك القاعدة بنحو أربعة عشر قرنًا.

اختيار علي بن أبي طالب:

وإذا حللنــا شــخصية علي بــن أبي طالــب رضي الله عنه تبيّنا دقة اختيار محمد -عليه الصلاة والســلام- له فــي المهمة التي ناطها به في الهجرة، وتطابق تلك القاعدة الحديثة مع ذلك الاختيار التاريخي الخالد.

ذلك أن قريشًــا لما رأت أن المسلمين يهاجرون أفواجًا إلى المدينة، وأن أهل المدينة يدخلون في الإسلام، خشوا أن يزداد

(٥٢) المصدر السابق. (المجلة).

انتشار دعوة محمد ﷺ، وأن يفلت الزمام من أيديهم، وخاصة أن المدينة كانت في طريق قوافلهم التجارية إلى الشام فقالوا: هذا شر شاغل لا يُطاق، وأجمعوا أمرهم على قتل النبي ﷺ بعد مشـاورات لهم بدار الندوة كما سـلف البيان، وكانت المؤامرة التي دبروها أن تقوم مجموعة من قريش تتألف من كل عشيرة فيها، بحيث تنتدب عنها شابًّا فتيًّا، ويعمد هؤلاء إلى محمد ﷺ فيضربونه بسيوفهم -شُلّت أيديهم- ضربة رجل واحد، وبذلك يتوزع دمه في جميع العشـائر، فـلا يقدر بنو عبد مناف على حربهـم، فلما كانت الليلة التي عزموا فيها على تنفيذ المؤامرة تربصوا قرب داره، منتظرين الفرصة الملائمة لاغتياله.

فأمر النبي ﷺ علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه قائلًا: «نم على فراشـي، وتسـج ببردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شـيء تكرهه منهـم»(٥٣). ودعا الله -عز وجـل- أن يعمي عليهم أثره، فطمس الله على أبصارهم، فخرج وقد غشيهم النوم، فوضع على رءوسهم ترابًا ونهض:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (يس: ٩)

فلما أصبحوا خرج عليهم علي بن أبي طالب وأخبرهم أن ليس في الدار ديّار، فعلموا أن الرسول قد فات ونجا، ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما كانت تبيته قريش من قتل الرسول في قوله تعالى:

---

(٥٣) سيرة ابن هشام ١/٤٨٣. (المجلة).

﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾

(الأنفال: ٣٠)

ويقول عز وجل:

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴾

(الطور: ٣٠، ٣١)

تلك هـي المهمة التـي عهدها النبي إلى علي، أن يتسـجى بردائه، ويبيت على فراشه كي يطمئن المتآمرون إلى أن محمدًا ﷺ لم يبرح داره، على حين يكون هو وصاحبه الصديق يجدّان السـير في الصحراء إلى يثرب آمنين من مطاردة الكفار لهما بضع ساعات يكونان قد قطعا خلالها بعض الطريق وأويا إلى مأمـن، ويتطلب نجاح هذه المهمة أن تُسـند إلى رجل تتوافر فيه الصفات الآتية مجتمعة:

أولًا: الانتماء إلى أهل بيت النبي ﷺ:

فلا يسوغ أن يبيت على فراش النبي رجل من غير أهل بيته مهمـا ارتفعت مرتبة صحبته له وسـمت مناقبه وتوافرت فيه الصفات الأخرى التي يحتاجها هذا الموقف.

ذلـك أن المبيت في فراش الرسـول ﷺ من شـأنه الاطلاع على أدق أسـرار البيت بالبصر والسـمع، والبيت حرم الرجل، والعربي أشد الناس حرصًا على حرماته الشخصية.

وفضلًا عن ذلك، فإن دخول رجل من غير أهل بيت رسـول الله ليبيت في فراش النبي من شأنه أن يسترعي نظر المتآمرين فيرتابوا في الأمر.

ومن ثم كان علي بن أبي طالب أصلح الصحابة لهذا الموقف، بـل أصلح الرجال من ذوي قرابة النبي ﷺ، فهو ابن عمه أبي طالب الذي كفل رسول الله بعد وفاة جده عبد المطلب، وعاش محمـد وعليّ وإخوته في كنـف أبي طالب يضمهم بيت واحد، وكان علـي صبيًّا في ذلك الحين، ولما مات أبو طالب أقام في بيت محمـد ﷺ فكان رفيقه، ولقد تزوج عليٌّ فاطمة بنت ابن عمه رسـول الله ﷺ بعـد الهجرة إلى المدينـة، فأصبحت له بذلك صلتان: آصرة القربى ورابطة المصاهرة، وكان من أهل البيت النبوي الذين نزل فيهم قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

(الأحزاب: ٣٣)

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما نزل قوله تعالى:

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾

(الشورى: ٢٣)

قالوا: يا رسول الله، من قرابتك الذين وجبت علينا محبتهم؟ قال: علي وفاطمة وابناهما - الحسن والحسين - كما روي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «خُلق الناس من أشـجار شـتى،

وخُلقــت أنا وعلي بن أبي طالب من شــجرة واحدة، فما قولكم في شــجرة أنا أصلها، وفاطمة فرعها، وعلي لقاحها، والحسن والحســين ثمارها، وشــيمتنا أوراقها، فمَن تعلــق بغصن من أغصانها ساقه إلى الجنة، ومَن تركها هوى إلى النار»[٥٤].

ومن الأشعار التي تُنسب إلى علي ﷺ قوله:

محمــد النبــي أخــي وصهــري
وحمــزة ســيد الشــهداء عمــي

وجعفــر الــذي يضحــي ويمســي
يطيــر مــع الملائكــة ابــن أمــي

وبنــت محمــد ســكني وعرســي
مشــوب لحمهــا بدمــي ولحمــي

ســبقتكمو إلــى الإســلام طــرًّا
صغيــرًا مــا بلغــت أوان حلمــي

ثانيًا: قوة الإيمان

إذ بمقدار أو بعمق إيمان مَن يُندب لذلك العمل يكون درجة توفيقه في أدائه، ولقــد كان علي ﷺ في طليعة الصحابة قوة إيمان، وكلهم أقوياء الإيمان بالله ورســوله ورسالته، فهو أول مَن آمن بالله ورسوله؛ إذ يقول أكثر أهل العلم: إن أول مَن آمن كان علي بن أبي طالب وخديجة بنت خويلد زوجة النبي ﷺ. ويقــول بعض الــرواة: إن أول من آمن - غيــر خديجة - علي

---

(٥٤) تاريخ دمشق لابن عساكر. (٤٢/ ٦٥). (المجلة).

وأبو بكر، واختلف في الأول منهما والأكثر منهم يقولون علي، واختلفوا في سنه يومئذ بين ثماني سنين وخمس عشرة سنة، وفي ذلك يقول ابن هشــام: أخذ رســول اللــه ﷺ عليًّا فضمه إليه، فلم يزل معه حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيًّا ورســولا، فلبى علي دعوة رسول الله واتبعه وآمن به وصدقه.

وعــن جابر بن عبــد المطلب رضي الله عنه قال: ســمعت علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- ينشد، ورسول الله ﷺ يسمع هذه الأبيات:

إني أخو المصطفى لا شك في نسبي

جــدي وجــد رســول اللــه منفــرد

صدقتــه وجميــع النــاس فــي ظلم

مــن الضلالــة والإشــراك والنكــد

فالحمــد للــه شــكرًا لا شــريك لــه

البــر بالعبــد والباقــي علــى الأبــد

قال: فتبسم رسول الله ﷺ وقال: صدقت يا علي.

ثالثًا: الأخوة وتبادل المحبة والثقة:

كيــف ينوب عن رســول اللــه ﷺ - في مثل هــذا الموقف الصعــب غير أخ حميم؟ يعطــي الأخوة حقّها في الشــدة كما يعطيها حقها في الرخاء، يعطيهــا المحبة والوفاء والإخلاص والتضحيــة، بــل يؤثر أخاه على نفســه؟ وكان ذلك الرجل هو علــي بن أبي طالب الذي وصفه رســول اللــه بأنه رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، وقال في خطبة ابنته فاطمة الزهراء له: «زوجتك سيدًا في الدنيا والآخرة، وإنه أول أصحابي

إسلامًا، وأكثرهم علمًا، وأعظمهم حلمًا»[٥٥].

ففي قدوم النبي الكريم إلى المدينة وبعد - أو أثناء - بنائه المسـجد آخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة والحق، فكانوا يتوارثون بذلك دون القرابات حتى نزلت الآية الكريمة: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ (الأنفال: ٧٥)

فآخى يومئذ بين علي ونفسه ﷺ ، فقال له: «أنت أخي في الدنيا والآخـرة»، وفي رواية: أنت أخـي وصاحبي، وكان علي يقول: والله إني لأخو رسول الله ﷺ ووليه.

وفي غزوة بدر كان مع رسول الله ﷺ يومئذ سبعون بعيرًا يعتقبونها، فكان ﷺ هو وعلي ومرثد بن مرثد يعتقبون بعيرًا،

وكان علـي - كما قال رضي الله عنه - ولي رسـول اللـه ﷺ وصفيه وكاتبـه ومسـتودع سـره ومحل ثقتـه - كان كاتـب صحيفة رسـول الله فـي الحديبية، وبلغ من حبه رسـول الله وإكباره له وإيمانه بدعوته أنه حين اعترض سـهيل بن عمرو، مندوب قريش في توقيع المعاهدة على كتابة «من محمد رسـول الله» فـي صدر صحيفة الصلح وأصر على أن يكتب «من محمد بن عبدالله» فقال النبي لعليٍّ: امسح يا علي واكتب: باسمك اللهم. وأبى عليٌّ أن يمحو بيده: «رسول الله» فقال له النبي: «اعرض علي»، فأشـار إليه فمحاه بيده وأمره أن يكتب: «من محمد بن

(٥٥) السيرة الحلبية. ١/٣٨١ (المجلة).

عبد الله» وكان عليٌّ وكيل رســول الله ونائبه وخليفته في أهله وأمينه على ودائعه، ففي غزوة تبوك وهي آخر غزاة غزاها ﷺ بنفســه خرج وضرب عسكره على باب المدينة واستعمل - أي خلــف عليهــا - علي بن أبي طالب فقال المنافقون اســتثقله، فذَكر ذلك عليٌّ لرســول الله فقال: كذبوا إنما خلفتك لما تركت ورائي فاخلفني في أهلي وأهلك، فأنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا إنه لا نبي بعدي.

وفي سنة تسع من الهجرة أمر رسول الله أبا بكر بالخروج إلى الحــج وإمامته الناس، فخرج أبو بكــر لذلك، ونزل صدر ســورة براءة بعــده - فقيل للنبي: يا رســول الله لو بعثت بها إلــى أبي بكــر يقرأها على الناس في الموســم، فقال له: إنه لا يؤديها عني إلا رجل من أهل بيتي، ثم دعا عليًّا فقال له: اخرج بهــذه القصة من صدر براءة، وأذن بهــا في الناس يوم النحر إذا اجتمعــوا بمنى، وأمره بما ينادى به في الموســم: ألا يحج بعد اليوم مشــرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومَن كان له عند رســول الله عهد فهو إلى مدته، مع سائر ما أمره أن ينادي به في كل موطن من مواطن الحج.

وفــي حجة الوداع أشــركه الرســول في نحــر الهدي - أي الأضاحي التي يقدمها الحاج للذبح - وآكله من لحمها وشاربه من مرقها.

وفي مرض الوفاة كان علي والعباس بن عبد المطلب أقرب

الناس إليه، وقد غسله ﷺ أخوه وحبيبه علي بن أبي طالب.

وفي حياتــه ﷺ كان علي ينفرد في رد الأمانات، ومن ذلك أنه أقام بمكة بأمر رســول الله بعــد هجرته إلى المدينة حتى أدى ودائع كانت عنده ﷺ أمره بأدائها إلى أهلها ثم يلحق به. ففعل عليٌّ ذلك ثم لحق به بالمدينة فنزل مع النبي بقباء حيث بنى الرسول مسجدًا، ونســتدل من ندب علي لأداء الودائع في مكــة أن ذلك كان الهدف الثاني من ندبه ليتوســد فراشــه في بيته بمكة ﷺ.

وكان علــي أمين رســول الله في دفع الديــات؛ ففي أعقاب فتح مكة بعث الرسول السرايا حول مكة يدعو إلى الإسلام ولم يأمرهم بقتــال، وكان خالد بن الوليد أحد أمراء تلك الســرايا، فخــرج إلــى بني جذيمة بن عامر فقتل منهم وســبا مَن أســر -وكانوا قد أسلموا- ولم يقبل خالد قولهم وإقرارهم بالإسلام، فوادهــم - أدى إليهم الدية - رســول اللــه إذ بعث علي بن أبي طالــب بمال إليهم، فودى لهم جميع قتلاهم، ورد إليهم ما أُخذ منهــم، وقال لهم علي: انظــروا إن فقدتم عقــالًا لأديته، فبهذا أمرني رسول الله.

فعلي هو نائب رسول الله ومندوبه في السلم وفي الحرب، وهــو أخوه ومأمــوره، المطيع الوفي الذي يبــادر إلى تلبية ما يدعــو إليه، قرير العين، هانئًا بهذا الاختيار، معدًّا له بطبيعته، وبحكم صلته برسول الله ﷺ.

رابعًا: الشجاعة وروح الفداء:

فلقــد كان مبيــت علــي فــي فراش النبــي ثــم طلوعه على المتآمرين صباحًا يخبرهم بما يتضمن أن رسول الله قد غادر البيــت، أمــرًا محفوفًا بالمخاطر التي تصــل إلى حد القتل من هــذه العصابة انتقامًا منه، ولا ســيما إذا لاحظنا أي خيبة أمل أصابتهــم بعــد إخفاقهم فــي مؤامرتهم وما ترتــب عليها من خزيهم بين الأعراب جميعًا.

لقــد كان هذا الموقــف يتطلب بطلًا فدائيًّــا، وكان علي ﵁ هو ذلك البطل، رشــحته لهذا نفس مطبوعة على الاستبســال، مفطورة على الشجاعة، مشحونة بالتحديات ومواجهة الأحداث الجســام، وقــد صقلهــا الإيمان منــذ الصبا الباكــر، فضاعف مــن قوتها وأرهــف من عزيمتها، وجعل الحيــاة تصغر لديها، أمام جــلال المقاومة وروعة الجهاد في ســبيل الله ورســوله والمؤمنين.

وإلى جانب هذه الصفات النفسية، توافرت لدى علي بن أبي طالب الصفات الجسمية التي أهّلته لمواقف النضال والتحدي، وهي سلامة البنية وقوة التحمل.

وفــي هذه الصفــات جميعًا يقول الكاتــب الكبير المرحوم عباس محمود العقاد في كتابه «عبقرية الصديق»: «المشهور عن علي أنه كان أول هاشــمي من أبوين هاشميين، فاجتمعت له خلاصــة الصفات التي اشــتهرت بها هذه الأســرة الكريمة

وتقاربت سـماتها وملامحها في كثير مـن أعلامها المقدمين، وهي في جملتها النبل والشجاعة والمروءة والذكاء عدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقت أو تقاربت في عدة من أولئك الأعلام».

ولن تـرى فـي العـلا أمًّـا كفاطمةٍ

ولـن تـرى كعلـي فـي الفخـار أبـا

وربما صـح من أوصاف علـي في طفولته أنـه كان طفلًا مبكر النماء، سابقًا لأنداده في الفهم والقدرة، ويقول:

«نشأ ﵁ رجلًا مكين البنيان في الشباب والكهولة حافظًا لتكوينـه المكين حتى ناهز السـتين». وقد عُرف في خلافته بالزهـد والتقشـف والـورع والحرص على مال المسـلمين، يوزعه بالعدل والقسـطاس المسـتقيم، دخـل ذات يوم إلى بيت المال، فوجـد الذهب والفضة، فقال يا صفراء اصفري، ويـا بيضاء ابيضـي، وغري غيري، لا حاجة لـي فيك. وكان لا يحابـى أحدًا، ويحاسـب الولاة على مـا ينفقون وما تحت أيديهـم، حتى إنـه لم يعف ابن عمه ابن عبـاس، وكان يأكل الشعير وخزائن الدولة تحت يده وهو أمير المؤمنين، ويقول: «لقـد رأيتني وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي لتبلغ في اليوم أربعة آلاف دينار».

وأخرج أبو نعيم عن علي بن الأرقم عن أبيه قال: رأيت عليًّا وهو يبيع سيفًا له في السوق، ويقول: من يشتري هذا السيف منـي، فوالذي فلق الحبة، لطالما كشـفت بـه الكرب عن وجه

رسول الله ﷺ، ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته.

كمـا ذاعـت شـهرته بالمروءة حتـى في معاملـة الخصم، والحلم وسعة الصدر والصفح، والعلم، وصدق فيه رسول الله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[٥٦].

وكان عليٌّ شأن قادة الإسلام معتزًّا بنفسه، واثقًا بها، يسعى نور علمه وفضله بين يديه.

ويقول المرحـوم العقاد في تحليل شـخصية علي بن أبي طالب: «آداب الفروسـية هـي مفتاح هذه الشـخصية النبيلة، كانـت القـوة طبعًا في علي فُطِر عليه، وأدبًا من آداب الأسـرة الهاشمية، نشـأ فيه، وعادة من عادات الفروسية العملية التي يتعودها كل فارس شجاع، متغلب على الأقران».

وكانت الشـجاعة عنـد علي مقترنة بالثقـة، أو الاعتداد، أو الادراع بالهيبـة والتهويل على الخصوم، ولا سـيما في موقف النزال، كان مدار هذا الخلق في ابن أبي طالب على ثقة أصيلة فيه، لم تفارقه منذ صار ودرج، قبل أن يبلغ مبلغ الرجال، فما منعته الطفولة الباكرة يومًا أن يعلم أنه شـيء في هذه الدنيا، وأنه قوة لها جدار مكين يركن إليه المستجير.

لو كان لعلي أن يرتاع في مقام نجدة أو مقام عزيمة لارتاع يومئـذ بين أولئك الشـيوخ الذين رفعتهـم الوجاهة، ودفعتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الخشـية والخشوع، ولكنه كان

---

(٥٦) المستدرك على الصحيحين للحاكم رقم ١٢٦/٣. (المجلة).

عليًّا في تلك السن الباكرة، كما كان عليًّا وهو في الخمسين أو الستين، فما تردد وهم صامتون مستهزئون أن يصيح صيحة الواثق الغضوب «أنا نصيرك».

ذلـك هو علي بن أبي طالب المحـارب الفذ والقائد الحربي العظيم، تشـهد بهذا بعد الهجرة غزوات النبي ﷺ، ففي غزوة بدر الثانية «بدر الكبرى» دفع الرسـول لواء جيش المسـلمين إلـى مصعب بن عمير ودفع الراية الأولى إلى علي والثانية إلى رجل من الأنصار.

وصار رسول الله حتى نزل قريبًا من بدر، وركب مع رجال من أصحابه مسـتخبرًا، فلما أمسى بعث عليًّا الزبير بن العوام وسـعيد بـن أبي وقاص فـي نفر إلى بـدر يلتمسـون الخبر، فأصابـوا إبلًا لقريش فيهـا غلام بني حجاج السـهميين وأبو يسار غلام سـعيد بن العاص بن أمية، فأتوا بهما ورسول الله قائم يصلـي، فما بعث عليًّا والزبيـر إلا لثقته في صلاحيتهما لتلك المهمة، صلاحية تنبع من قوة إيمانهما وفرط شجاعتهما وما وهبهما الله من روح فدائية تسـتعذب اقتحام الخطر ذودًا عن الإسـلام، لا تخشـى بأسًـا لقريش، ولو اجتمع فرسـانها جميعًا، ولا ترهب عددًا ولا عدة.

وبـدأت الحـرب، فخرج عتبة بـن ربيعة وشـيبة بن ربيعة والوليد بـن عتبة يطلبون المبارزة، فخـرج إليهم من الأنصار عوف ومعوذ ابنا عفراء، وعبد الله بن رواحة الأنصاري. فقالوا:

لســتم لنا بأكفاء وأبوا إلا قومهــم - المهاجرين - فخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث وعلي بن أبي طالب، فقتــل الله عتبة وشــيبة والوليد، وســلم حمــزة وعبيدة وعلي، وروى كُتاب الســيرة أن علي بن أبي طالــب قتل عتبة بن أبي ربيعة والعاص بن ســعد بن العاص، وأنه قتل الوليد بن عتبة، وقيل: بل قتله عبيدة بن الحارث، وقيل: اشترك علي وحمزة في قتل عتبة والوليد وشــيبة، وقتل علي عقبة بن أبي معيط صبرًا بأمر الرسول، كما قتل كثيرًا من المشركين في تلك الغزوة.

فــإذا لاحظنا أن قريشًــا كانت قد عبّأت كل قواها البشــرية والمادية لتلك المعركة الفاصلة، وأنها اختارت خير فرســانها لقتال المســلمين، وأن هؤلاء كانوا رءوس قريش وسادتها وقد ســقطوا صرعى في ســاحة القتال، أدركنــا أي مقاتل عبقري كان علي بن أبي طالب حتى سُــمي فارس الفرسان، وقيل له: كيف تقتــل الأبطال؟ قال: لأنني كنت ألقــى الرجل فأقدر أني أقتله، ويقدر هو أني قتلته، فأكون أنا ونفسه عونًا عليه.

وفــي غزوة أحد أبلى علي وحمزة بلاءً حســنًا، وقتل بعض الكفار ولما جرح رســول الله فــي وجهه وأكبت الحجارة عليه حتى ســقط في حفرة كان أبو عامر الراهب قد حفرها مكيدة للمسلمين، فخر ﷺ على جنبيه، أخذ عليٌّ يده واحتضنه طلحة حتى قام..

ذلك هو المعدن الأصيل يتوهج في الشدائد والأزمات نجدة

وافتداء وبطولة لا توهب إلا للشوامخ الأعلام في تاريخ البشرية، وهاهــو ذا رســول الله يجمع شــمل المســلمين فــي الموطن العصيــب، ويعطي عليًّــا الراية بعد أن قُتــل مصعب بن عمير وهو يدافع عن رســول الله حين وصل إليه المشركون، ويقود فارس أهل البيت جند الإسلام حتى تنجلي الغمة قيادة محارب خبير بفنون القتال، كفء للمعارك غير هيّاب ولا وجل.

وفي غزوة الخندق تيمم بعض فرســان قريش مكانًا ضيقًا من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فصاروا بين الخندق وبين ســلع، فيا للخطر المطبق على المسلمين بالمدينة، ومن الــذي يتصــدى لمواجهة العــدو المقتحم ويرده علــى أعقابه مدحورًا حتى لا يتبعه الآخرون؟ لقد انبرى علي بن أبي طالب - كشأنه في الملمات الجسام - وخرج معه نفر من المسلمين حتى أخذوا على فرســان قريــش الثغرة التــي اقتحموا منها، وأقبل هــؤلاء نحوهم ونادى عمرو بــن ود(٥٧): هل من مبارز؟ وما أســرع أن قَبِل علي تحدي فارس الأعــداء، فبرز له وتنازلا ولقي عمرو مصرعه بسيف علي.

وهاهم بنــو قريظة ينقضون العهد، فيأمــر النبي بغزوهم ويعطي عليًّا الراية، فيصدق في المهمة التي نُدب لها، مشــرق الجبين، رائع الســمت رحمةً للمؤمنين، ونِقمةً على المنافقين، وينتصــر جيــش النبي بقيــادة علــي ويحقق أهدافــه فيطهر المدينة من عصابات العدو والخيانة.

---

(٥٧) يقصد: عمرو بن عبد وُدٍّ.

ولكن ثمة عصابات أخرى في خيبر تضمر العداء للإســلام، وقد بدأت تطل برءوســها وتتحالف مــع أعدائه، ويخرج النبي إلى خيبــر دافعًا رايته البيضاء إلي علــي، وهنا يروي التاريخ واقعة من أعظم ما سُــجّل في تاريخ الحروب دلالة على البأس وقوة الشــكيمة التي لا تبارى؛ فقد امتنع على المســلمين فتح حصن من الحصون، فأعطى النبي رايته أبا بكر، وكان ينشــد ذلــك الشــرف فنهض بها وقاتــل واجتهد ولم يُفتــح عليه، ثم أعطاهــا عُمَــر وكان يطمح إلى تلك الغاية فلــم يُفتح له. فقال النبــي: «لأعطيــن الراية رجــلًا يحب الله ورســوله ويحبه الله ورسوله، ليس بفرّار، يفتح الله عز وجل على يديه»، ودعا عليًّا وكان أرمد فلثم عينيه ثم قال: خذ الراية فاقصد بها حتى يفتح اللــه بها عليك، فلما دنــا علي من الحصن خــرج إليه من أهله وقاتلهم فضربه رجل من اليهود، فألقى ترسه من يده، فتناول علي بابًا كان عند الحصن، فاتخذ منه ترسًــا يدفع عن نفســه، فلــم يــزل في يده وهو يقاتل حتى فتح اللــه عليه ثم ألقاه من يده، ويقول الرواة: إن ثمانية رجال من المسلمين جاهدوا في سبيل قلب ذلك الباب فما انقلب على حين أن عليًّا -رضي الله عنه- حمله وحده وحارب به، وتلك آية على ما وهبه الله من بأس وقوة.

وفــي غزوة خيبــر قاتل علــي مرحبًا اليهــودي حين خرج يخطو متحديًا بسيفه وفروسيته قائلًا:

قــد علمــت خيبــر أنــي مرحــب

شــاكي الســلاح بطــل مجــرب

إذا الحـــروب أقبلــت تلهــب

وقال فارس الإسلام علي:

أنـــا الـــذي سمتني أمـــي حيدره

كليث غــابــات كريه المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندره

وتبــارز الخير والشــر، فانتصــر الخير إذ فلــق عليٌّ رأس مرحب بالسيف، وكان فتح حصون خيبر على يده رضي الله عنه.

وفي فتح مكة نزع رســول الله الراية من ســعد بن عبادة؛ لأنه كان ذا حدة في الطبع، ودفعها إلى علي، وفي غزوة حنين حملــت قبيلة هوازن من مكمنها فـــي جنبتي الوادي في غبش الصبــح على المســلمين حملة رجــل واحد، فانهــزم جمهور المســلمين ولم يلو أحد على أحد، وفـــي هذا الموقف العصيب ثبت مع رســول الله أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وآخرون.

واشــتدت الحــرب حين عــاد الجنــود المســلمون على أثر اســتنهاض النبــي هممهــم وتذكيرهــم بدينهــم الــذي يحث علــى الجهاد وكثرة الطعــن والجلاد وقال النبــي: «الآن حمي الوطيس»(٥٨)، وضرب علـــي عرقوب جمل صاحب راية الأعداء أو فرســه، فصرعه، ولحق بعلي رجل من الأنصار فاشترك في قتله، وأخذ علي الراية وانهزمت هوازن وثقيف بفضل حســن

---

(٥٨) مسند أحمد برقم ١٧٧٦. (المجلة).

قيادة رســول الله واستبسال علي القائد الحربي المغوار الذي يصدق فيه قول المتنبي:

وقفــت وما فــي الموت شــك لواقف

كأنــك فــي جفن الــردى وهــو نائم

تمــر بــك الأبطــال كَلْمــى هزيمــة

ووجهــك وضَّــاح وثغــرك باســم

فلا غرو أن يكــون علي - وقد تكاملت فيه كل تلك المناقب والقدرات كما ظهرت آياتها قبل الهجرة مبشــرة باســتمرارها بعــد الهجرة- هو مختار محمد قائد الأمة الإســلامية ليتوســد فراشــه في تلك الليلة الخالدة، وذلك هو وضع الرجل المناسب في المــكان المناســب، كما اصطلــح علماء التنظيــم الإداري الحديث.

ولقــد كان رســول الله يعد عليًّا بندبه لهــذه المهمة لقيادة الدولة الإســلامية مع الصفوة من الصحابة بعد أن يكمل النبي رسالته ويختاره الله إلى جواره، ذلك أن إعداد القيادات - ذلك المبدأ الحديــث الذي تزايد الاهتمام بوضعه موضع التطبيق - كان مــن الأعمال التــي حفل بها تاريخ النبــي الكريم بغية أن تســتمر الرســالة من بعده حتى تبلغ الناس جميعًا وأن تعمق في نفوس الكافة، وأن تحقق آثارها في كل زمان ومكان.

كان الرســول يدرب علي بن أبي طالــب - صفيه وصاحب رايته وأمينه في الودائع والديات - على الاضطلاع بالمسئوليات الجســام - ومواجهــة الأخطار وتحــدي العقبات والاســتهانة

بالموت في ســبيل الدفاع عن العقيدة والوطن والعرض، وفي سبيل دفع أعلام الحق والفضيلة والمساواة والخير والسلام في كل موقع وعلى كل ســارية، وليس كمثل أمر علي بالمبيت في فراش الرسول ليلة هجرته ﷺ تدريب على تلك المسئوليات.

فــإذا تأملنــا الأدوار الأخــرى التي حددها رســول الله لمن اشتركوا معه في إنجاز الهدف الجليل وهو الهجرة إلى المدينة، تبيَّنا بوضوح دقة اختياره لكل شخص حيث يكون أكثر فائدة وتحقيقًا للغرض من ســواه، وفي وســع الباحــث المعاصر - مســلمًا كان أو غير مســلم - طالما كان الوصول إلى الحقيقة غايته أن يتأكد من تمام تطبيق تلك القاعدة الإدارية إذا تصفح تاريخ كل مَن شــارك رسول الله في الإعداد للهجرة وتنفيذها، فالتاريخ خير شــاهد على موهبة التنظيم الإداري التي منحها لرســوله بما يرويه من وقائع ومعامــلات تثبت توافر الصفات الكفيلة بنجاح الفرد فيما ندبه له الرسول وخصصه له.

اختيار قلة من الأعوان:

لقــد اختــار النبي - بادئ ذي بدء - جماعــةً يرتبط كل من أفرادها بأبي بكر الصديق بصلة وثيقة بشرط أن يكون موضع ثقتــه على أقل تقدير؛ فلقد كانت «الســرِّية» شــرطًا ضروريًّا لتحقيق الهدف، فلو نُدب فرد واحد لا تتوافر فيه صفة الكتمان لما تحقق الغرض.

ومن ثم كان اختيار أســرة الصديــق للمعاونة فيما تتطلبه

المسيرة العظمى من شئون اقتضاها التخطيط المحكم القائم على إعداد العدة قبل التنفيذ.

وفضــلًا عن ميزة اختيــار جماعة تربطهــا قرابة من حيث كتمان العمــل المتفق عليه، فإن ثمة ميزة أخرى لهذا الاختيار وهي ضمان الانســجام بين أفراد الجماعــة وما يؤدي إليه من تعــاون وثيق، إذ يصبح الجميع كأنهــم رجل واحد، ولا يخفى ما يســفر عن ذلك من إيثار الفرد للصالح العام على المصلحة الشخصية، بل إن كلتا المصلحتين تندمجان، فتلتهب الحماسة ويتضاعــف الجهد، ومن ثَم يركز علمــاء التنظيم الإداري على أهميــة توافــر روح الجماعــة في نفــوس العامليــن بوصفها الدعامة الأولى للنجاح.

تقسيم العمل:

وقسّــم النبي -عليه الصلاة والسلام- العمل بين أفراد هذه الأسرة المؤمنة تقسيمًا يتفق مع أحدث أصول التنظيم وطرائق العمــل، وهو التقســيم على أســاس حرية الاختيــار والخبرة، والتخصص.

وكانت الأســرة تتألــف من عبد اللــه بن أبي بكــر، وأختيه عائشة وأسماء ومولاهم عامر بن فهيرة.

الدليل: عبد الله بن أَرْقَط:

وقبل أن نحلل مهمة كل منهم وتناسبها مع طبيعته وصفاته وإمكانياتــه، يجدر بنا أن نذكــر أن اختيار النبي وأبي بكر قد

وقــع على رجل من كفار قريش هو عبد الله بن أرقط - ويُقال ابــن أريقط الديلي - ليكون دليلهما فــي الطريق إلى المدينة، وقد يثور تســاؤل عن أســباب اختياره - وهو كافــر - للقيام بتلــك المهمة الدقيقة: ألم يكن ثمة مســلم يصلح للقيام بهذه المهمة؟ ألم يكن من المحتمل أن يعمد هذا الرجل إلى الوشاية بمحمد وصاحبه إلى قومه المشركين من قريش؟

والإجابة علــى ذلك فى ضــوء العلوم والتجــارب العصرية أن الخبيــر الذي لا غنى عنه، وليس ثمــة بديل يقوم مقامه، لا مفر من اســتخدامه ولــو لم يكن على دين مــن اختاره طالما كان موضع ثقته الشــخصية، ومثال ذلك أن الدول الإســلامية الحديثة تســتخدم خبراء أجانب غير مســلمين للاستفادة بهم حيث تندر الطاقات البشــرية المحلية، وقد أثبتت هذه التجربة نجاحها فلم يلحق بهذه الدول ضرر من ذلك، بل حققت هدفها من هذا الاســتخدام، أما الخطأ فهو الاســتعانة بخبير من غير أهــل الدين علــى حين يوجد مثيلــه بين المســلمين، والقاعدة الشــرعية أن الضرورات تبيح المحظورات، والإســلام شريعة ودولة، فهو يســتند فــى أحكامه إلى الواقــع والمصلحة دون تعصب أو تعقيد.

ولقد استعانت الدول الإسلامية قديمًا بالخبراء الأجانب فى سبيل الانتفاع بعلومهم وخاصة فى عصر النهضة العلمية أيام الخلفاء العباســيين، فكان ذلك من أســباب ازدهارها وبلوغها

مبلغًــا عظيمًــا فى مضمــار الحضارة مما ســجّله التاريخ فى صفحات من نور، ولا يُعترض على ذلك بأن الاســتعانة بهؤلاء الأجانب كانت من أســباب تفســخ الدولة العباسية وانحلالها، فالواقــع أن ترك الحبل على الغارب للشــعوبيين وعدم تحري الدقــة فى اختيــار هــذه الفئة رغــم كثرتها، همــا بعض تلك الأســباب والعوامل، ولا تكمن العلة فى استخدام الخبير ذاته، بل إن اســتخدام الخبير بعد اختياره والرقابة الخفية عليه فى أثناء عمله، مع حســن معاملته قد يكون ســببًا فى إسلام ذلك الخبيــر كما حــدث فى حــالات لا يحصرها العد إبــان ازدهار الدولة الإسلامية، وكما يحدث أحيانًا فى عصرنا الحاضر، فثمة شرطان أساسيان للاستعانة بخبير من غير الملة:

أولهما: أن يكون موثوقًا به.

والثانــي: أن يكــون اختيــاره حتميًّا بمعنــى ألا يوجد من أهل الملة مثيل له، وقد توافر هذان الشــرطان فى عبد الله بن أرقط؛ إذ يقول كُتاب السير: إنه كان كافرًا لكن النبي وصاحبه وَثِقــا به، وكان دليلا بالطــرق، وجاء فى الحديث الصحيح أنه كان هاديًــا خِرّيتًا أي حاذقًا يعرف مضايــق الطرق، ولو مثل خرت ثقب الإبرة؛ لذلك دفع رســول اللــه وصاحبه راحلتيهما إليه، واســتأجراه ليدلهما إلى المدينة، ويأخذ الفقهاء من ذلك جواز الاعتماد على غير المسلمين فى الأمور الخطيرة إذا غلب علــى الظن أنهم لا يخونون، كالاعتماد عليهم فى علاج أمراض

العيون، وفي الطب والكتابة والحســاب ونحو ذلك من الشئون العلمية والإدارية والمالية، ولا يلزم من مجرد كون الخبير غير مســلم ألا يوثق به فى شيء فإنه لا شيء أخطر من الدلالة في الطرق ولا ســيما في مثل الهجرة، ومع ذلك فقد اعتمد رسول اللــه فيها على هذا الرجل وهو كافر، وحمدت العاقبة في ذلك، والدليل على حســن هذا الاختيار أن ابن أرقط قد ســلك بالنبي وصاحبه طريق الساحل، الأمر الذي لم يرد على خاطر قريش؛ إذ لم يكن طريقًا مألوفًا في ذلك الحين.

ومن ثــم فإن اختيار عبد الله بن أرقط مرشــدًا ودليلًا كان وضعًا للرجل المناسب في المكان المناسب.

عبد الله بن أبي بكر:

أما عبد الله بن أبي بكر فقد كان دوره هو اســتطلاع أخبار قريــش بمكة، والوقــوف علــى رد الفعل الــذي أحدثه خروج النبي ســرًّا، وما عســى أن يدبره زعماؤها لوقف مســيره ﷺ وبذلك يكون رســول الله وصاحبه على بينــة مما يُحاك خلفه من مؤامرات فيســتطيع أن يتقيها ويبلغ مأمنه في يثرب، ومن ثَــم تبدو أهميــة العمل الذي أســند إلى عبد الله بــن أبي بكر وحساســيته وخطورته ومدى تأثيره في تحقيق الهدف، ومثل هذا العمل يتطلب فيمن ينهض به توافر عدة صفات أساســية، أن يكــون قوي العقيدة موثوقًا بــه، قادرًا على أداء هذا العمل، أو بعبارة موجزة يكون صالحًا لمهمة الاستخبار.

وكان عبـد اللـه بن أبي بكر هـو الرجل الـذي يصلح لتلك المهمـة لاجتماع هذه الصفات في شـخصه، فأما قوة عقيدته وأهليتـه بالثقة، فيكفي دليلًا عليهما انصياعه لأمر أبيه راضيًا قرير العين حين ندبه لتقصـي أخبار الفئة الباغية من قريش بمكة نهارًا ثم إبلاغها إلى الرسـول وصاحبه ليلًا في مأمنهما على الطريق من مكة إلـى يثرب، وأما قدرته على أداء ما ندب له، فإنها ترجع إلى رباطة جأشه وثباته وحسن تصرفه، وتلك صفات ورثها عن أبيه، وإلى أنه لم يكن موضع ريبة من قريش فتظن به الظنون إذا جلس في مجالسـها أو حام حولها، إذ لم يلازم الرسول مثل أبيه، ولم يكن من أهله، ففرصته في استقاء الأنبـاء وتقصيها أوفر من غيره، كما أن حبه أباه وإيمانه بالله ورسوله حافز له على بذل جهده في سبيل خدمتهما.

ولا ريـب في أن مثل هذا العمل الذي عهـد إلى عبد الله بن أبـي بكر القيام به كان يتطلب روحًا فدائيةً ولقد كان عبد الله مسـلمًا فدائيًّا، وقد ظلت شعلة التضحية متقدة في دمه طوال حياتـه القصيـرة، وأبى إلا أن يكون مقاتلًا تحت راية رسـول الله في الغزوات، وكان من شـهداء الإسلام في حصار الطائف إذ أصابه سهم فاسـتمر منه مريضًا حتى مات في خلافة أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أسماء بنت أبي بكر:

وكان دور أسماء بنت أبي بكر الصديق في الهجرة أن تأتي

النبـــي وصاحبه بالماء والزاد إبان اختفائهما عن أعين قريش، وظلت على ذلك ثلاث ليال متعاقبة، تقتحم الصحراء الموحشة فـــي رهبة الظلام وهي غر صغيرة، ولا تبالي العيون والأرصاد التـــي تبعثها قريش فـــي الطريق من مكة إلـــى المدينة لتظفر بمحمد، وتنقل إلى أبيها وصاحبه في الغار ما علمت من أخبار قريش مستهينة بكل خطر في سبيل الله ورسوله.

ويشهد تاريخ حياة أسماء منذ عصر النبي ﷺ حتى عصر خلفاء بني أمية بأنها نموذج يندر مثيله بين النساء: قوة إيمان وقوة إرادة تتجسدان في مواقف الصمود والتضحية بكل غال في سبيل الحق والثبات على المبدأ.

لقد بادرت أســماء إلى الإســلام حين أســلم أبوها الصديق وهــي في الرابعة عشــرة من عمرهــا، فكانت مــن أول الناس إيمانًــا بالله ورســوله، وصارت من أفضل النــاس خلقًا وعلمًا بحكم اهتدائها بهدي الإسلام واكتمال نشأتها في ظله.

وكان أبوها الصديق العظيم يرشحها لأعظم الأعمال؛ فحين ذهــب النبي في بيته ليحدثه بأمــر الهجرة إلى المدينة بعد أن أذن اللــه تعالــى له بها وقال لــه: «أخرج عني مَــن عندك»[٥٩] -يريــد أن يخلــو ليحدثه ســرًّا- قال أبــو بكر: يا رســول الله إنما هما ابنتاي -يريد أســماء وعائشــة- فأخبره الرسول خبر الهجرة في حضورهما مما ينبئ عن أعظم الثقة بهما، فلا غرو

---

(٥٩) سيرة ابن هشام. ١/٤٨٥ (المجلة).

أن يعهد أبو بكر إلى ابنته دورًا مؤثرًا لا يســتطيع أداؤه إلا من توافــرت فيه قوة الإيمان والطاعة والثقة والشــجاعة والصلابة والمقدرة، فحين خــرج مع النبي إلى الغار، واختفيا فيه ثلاثة أيام والكفار يبحثون عنهما في كل مكان، فكانت أسماء تخرج كل ليلة في الســواد الحالك تحمل لهمــا الطعام، وتنقل إليهما مــا علمت من أخبار قريش غير مبالية ـ وهى ما زالت صغيرة السن ـ بوحشة الليل، ورهبة السرى في الصحراء المترامية ـ وعدوان الكفار، مســتهينة بكل خطر في ســبيل الله ورسوله، فأي معدن أصيل من النساء كانت تمثله أسماء؟!

ولما هــمَّ الصاحبان بالرحيل إلى المدينة جاءتهما أســماء بمــا يحتاجان إليه في رحلتهما مــن زاد وماء، وهمت بتعليقه في رحل البعير، فلم تجد رباطًا فحلت نطاقها وشقته نصفين ربطــت بأحدهما الزاد وانتطقــت بالآخر، فقال لها الرســول: «أنت ونطاقاك في الجنة» وسميت بعد ذلك بذات النطاقين.

وجاءتها قريش عقب خروج أبيها مع النبي مهاجرًا تسألها عــن أبيها، فقالت: لا أدري أيــن يكون، فلطمها أبو جهل لطمة أطارت قرطها، واحتملتها في سبيل الله، وأقبل جدها أبو قحافة مهمومًــا يقول لها في غضب وحــزن: لقد فجعكم أبو بكر في نفسه وفرّ بماله، فقالت أسماء: كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيرًا كثيــرًا وصارت تحرك يــده على جرة ملأتها حجــارة وغطتها لتوهمــه أنها مملوءة بالمــال، وما زالت به حتــى اطمأن وهدأ

غضبه، وتروي أســماء هذه الواقعة فتقول: «لما خرج رســول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه، احتمل ماله كله معه، خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم ـ فانطلق بها معه، فدخل علينا جدي أبــو قحافة وقد ذهب بصره، فقــال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، فقلت: كلا يا أبت، إنه ترك لنا خيرًا كثيرًا، ومن ثم أخذتُ أحجارًا فوضعتُها في كوة البيت حيث كان أبي يضع فيهــا ماله، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثــم أخذت بيده فقلت: ضع يــا أبت يدك على هذا المال، فوضع يده عليه وقال: لا بأس، إن كان قد ترك لكم هذا فقد أحســن، وفي هذا بلاء لكم.. فلا والله ما ترك لنا شيئًا ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك».

وفي تلك الواقعة دلالة على ما اتســمت به أسماء من إصرار علــى الموقف وقدرة علــى المقاومة وذكاء فــي التصرف مما كانت تقتضيه طبيعة المهمة التي وكلت إليها.

وليس ثمة شك في أن أبا بكر الصديق إذ ناط بابنته أسماء ذلــك العمل الشــاق المحفــوف بالمخاطــر، كان يدربها على الاضطــلاع بالمهام الكبرى في مســتقبل حياتهــا، الأمر الذي أكــد التاريخ نجاحه فيما روي عنها من صفحات مجيدة تمثل ملحمة بطولية يعتز بها تاريخ النساء في الإسلام.

فقد تزوجت أســماء في صدر الإسلام من الزبير بن العوام أحد أصحاب رســول اللــه، وكانت وهي ربيبــة النعمة والثراء في بيت أبي بكر الصديق ـ تقوم بنفســها بخدمة بيتها كانت

تعلف لزوجها فرسه، وتسـقيها حين عجز أن يستأجر خادمًا لها، وبحكم ما تلقنته أسـماء من مبـادئ الدين وتعاليمه منذ صغرها، وما أخذت عن أبيها من علم، وما سمعت من النبي ﷺ مـن حديث، فقد كانت من الصحابيـات اللائي روين الحديث، ونشـرن العلم في صدر الإسلام، وتروي كتب السنة عن أسماء كثيـرًا من الأحاديث، ومنها اسـتنبط العلماء والفقهاء الأحكام الفقهية، والمسائل الدينية.

ولقد عاشـت أسـماء أكثر أيامها الأخيرة مـع ابنها عبد الله بن الزبير، وشـاركته حياته العاصفة، وكُـف بصرُها في آخر حياتهـا، ولكنها ظلـت حاضرة الذهن، عامـرة القلب بالإيمان والإخلاص والصلابة في الحق.

وثمـة موقـف ـ ما أروعه من موقف ـ سـجلت فيه أسـماء صفحة مجيدة من الدفـاع عن الحق والتضحية بكل عزيز في سبيله صفحة كُتِبت بمداد الحق، وسُطرت بدم الشهداء، ولقد بلغت بها أسـماء أسـمى ما تبلغه النفس البشـرية في معارج البذل والفداء.

ذلك أن ابنها عبد الله قد خرج على يزيد بن معاوية الخليفة الأموي، وشـجعه على ذلـك أهل الحجاز الذيـن بايعوه أميرًا عليهم لعلمـه وخلقه ومكانته، وعجـز الأمويون عن إخضاعه سـنوات برغم ما اشتهروا به من شـدة في معاملة الخارجين عليهم وقمع لخصومهم، فلما تولى عبد الملك بن مروان أرسل

إلــى عبد الله بن الزبيــر الحجاج بن يوســف، وكان أداته في البطش بالخصوم لما عرف به من قوة وغلظة، فحاصره بمكة نحو ثمانية أشــهر، واســتخدم كل وســائل الإغــراء والإرهاب لصــرف أعوانه عنه، ولما اشــتد الحصار على عبــد الله وبدأ أنصـــاره يضيقون ذرعًـــا بما عانوه من ويـــلات دخل عبد الله على أمه أسماء يستشـــيرها قائلًا: يا أماه خذلني الناس حتى ولـــدي وأهلـــي فلم يبق معي إلا اليســـير ممن ليـــس عنده من الدفـــع أكثر من صبر ســـاعة، والقوم يعطوننـــي ما أردت من الدنيا فما رأيك؟

قالت أسماء: «أنت والله يا بني أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق، وإليه تدعو فامض له فقد قُتِل عليه أصحابك، ولا تمكـــن من رقبتك غلمان بنـــي أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيـــا فبئس العبد أنت، أهلكت نفســـك، وأهلكـــت من قُتِل معك.

وإن قلـــت: كنـــت على حق، فلمـــا وهن أصحابـــي ضعفت، فليس هذا فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا؟! القتل أحسن، والله لضربة بالسيف في عز أحب إلي من ضربة بسوط في ذل».

قال: «إني أخاف إن قتلوني أن يمثلوا بي».

قالـــت قولتهـــا المشـــهورة: «يا بنـــي، إن الشـــاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها».

وخــرج عبد الله، فقُتل في يومه، وماتت أمه بعده بأيام فيا لأســماء من أم خالدة تحث ابنها على الاستشــهاد في ســبيل الحق، وتحفزه إلى مواصلة القتال، وقد علمت أنه لن يعود من ســاحة الجهاد حيًّا، وأنه لن يبقى لها في الحياة بعد مصرعه أحد، ولكن الحق أقوى من غريزة الأمومة في نفسها: إنها باسم الحق تدفع ابنها دفعًا إلى الموت في سبيله، وتعلن أنها بريئة منــه وهو فلذة كبدهــا إذا تقاعس وآثر الحيــاة الدنيا، فكيف ينكص عن رســالته وقــد دفع أصحابه حياتهــم فداء لها، ولا غــرو فهي بنت أبي بكر الصديق صاحب رســول الله ورفيقه في هجرته إلى المدينة.

إن هــذا الموقــف التاريخــي الفدائي هو نبــت موقفها من أبيهــا ومن رســول الله فــي رحلتهما الكبرى التــي تغير بها وجــه التاريخ، لقد أعدها موقفها ذاك بكل جليل من المواقف، وأمدتهــا روح النبي وصاحبه بفيض من القوى الروحية: قوة الإيمــان والإصــرار والثبات على المبدأ التــي تزلزل دونها كل القوى المادية، فالقتل عند أســماء خير من العيش على مذلة، وطالما أن الموت حق ولا بقاء لحي، فإن ضربة بالســيف في عز أحب من ضربة بالسوط في هوان:

وإذا لــم يكــن مــن المــوت بــد
فمــن العــار أن تعيــش جبانــا
غيــر أن الفتــى يلاقــي المنايــا
كالحــات ولا يلاقــي الهوانــا

ولــو أن الحيــاة تبقــى لحــي
لعددنــا أضلنــا الشــجعانا

عائشة بنت أبي بكر:

ولقد شاركت أسماء دورها الخالد في الهجرة أختها عائشة – كمــا تروي معظم كتب الســيرة – وكانت لا تزال طفلة دون العاشــرة، فخاضت بذلك تجربة أكبر من سنها الصغيرة، مما أكســبها نضوجًا فكريًّا ونفســيًّا مبكرًا، أتاح لها القيام بأدوار كبرى في مستقبل حياتها.

ولعــل هذا ما حدا بأبيها الصديــق إلى الإذن لها – وهي غر لم تشــب بعد بصحبة أختها في تلك المسيرة المباركة، وليس يعجم عود الإنسان ويهذب طبعه ويجعله أصلًا لعظائم الأمور خير من الجهاد في سبيل الله، ولقد كان اقتحام ابنتي أبي بكر ظلمات البيداء حاملتين لأبيهما وصاحبه رسول الله حاجتهما من الماء والطعام غير مباليتين بما قد يصيبهما من أذى، بلاء أي بلاء، وجهادًا أجل جهاد.

فــلا غرابة أن تكون هذه الخبــرة عنصرًا أصيلًا من مكونات شــخصية عائشــة، وأن تثمــر أســمى القيــم والمبــادئ، وفي مقدمتها قوة الإيمان والإخلاص والتعاون والشجاعة والتضحية، فترشحها بذلك لتكون من أمهات المؤمنين، ومن راويات حديث رســول الله، ومن ألمع الشخصيات النسائية في تاريخ الإسلام، إنها بنت الصديق العظيم والنموذج الإنســاني الكامل في الوفاء للصديق، والتضحية في سبيل الانتصار لدعوته ونشرها.

كان صاحــب النبي قبل البعثة، فلما دعاه إلى الإســلام كان أول من آمن من الرجال، وظل رفيق رحلة العمر ورسالة الحق ومعتــرك الجهاد، لازم النبي في كل الغــزوات، وعاونه بجهده وماله، ولما حث النبي المســلمين على الصدقة لإعداد الجيش وتموينه في غزوة تبوك إذ كان الجهاد اختيارًا وتطوعًا لا إلزامًا كان أبو بكر أول المتصدقين، جاد بماله كله فقال له الرسول: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورســوله، وفي فضل أبي بكر يقول رســول الله: «ما نفعني مال أحد قط مثل ما نفعني مال أبي بكر»[٦٠].

ولقد غرســت أصول شــخصية أبي بكر في عائشــة مثلما غرســت في ســائر أبنائه، قوة عقيدة، وسداد رأي، وثباتًا على الموقف، وإخلاصًا للإسلام، وجهادًا في سبيله.

ولقــد ارتضاها رســول الله زوجة له بعــد أن ودّع خديجة إلى الرفيق الأعلى، وأراد أن تزيد الأواصر بينه وبين السابقين إلى الإســلام مكانــة وقربى، فخطبها إلى أبيهــا، وهكذا كانت مســيرتها ليالــي الهجرة مقدمــة كمرحلة حياتهــا مع محمد رســول الله ﷺ ودعوته الكبرى، وكان تعاونها معه في رحلة العمــر والجهــاد امتدادًا لهــذا التعاون النبيل الــذي قامت به تلك الليالي، مشــاركة أباها وأخويها عبد الله وأسماء ومولاهم عامربن فهيرة.

---

(٦٠) سنن الترمذي، رقم ٣٦٦١. (المجلة).

وظل المســير متصلًا، والطريق واحــدًا، أما الرفيق فهو أب بــارٌّ عطوف، وزوج مشــفق أحبها، وظل يحبهــا طول حياته، ورضي اللــه عنها حتى برأها في كتابــه المجيد مما رماها به أهل الإفك في أعقاب غزوة بني المصطلق في الســنة السادسة من الهجــرة، فنزل القــرآن ببراءتها، وذلك في الآيات العشــر بسورة النور:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: ١١- ٢٠)

ولقد كان موقف عائشة في تلك المحنة منبثقًا من مكونات شخصيتها التي ذكرناها، والتي كانت خبرتها في ليالي الهجرة عنصــرًا منها موقف إيمان وقوة، تحطمــت على جنباتهما كل القــوى، وعفت لجلالهمــا كل الوجوه، واســتحقت صاحبتهما تكريم الله تعالى إذ برأها في آياته البينات.

وظل النبي يســكن إلى عائشــة وهو يحمل مشعله الوهاج، فيبدد ظلمات الليل، واستمر المشعل مضيئًا بأيدي خلفائه بعد أن اختاره الله إلى جواره، واستمرت عائشة تعيش بمنزلها في الحجــرة المجاورة لحجرة النبي ســعيدة بهذا الجوار الكريم، ثــم دفن أبوها الصديق لما مات إلى جوار النبي، وظلت الأنوار تغمر كل الآفاق وتنتشــر الإيمان في كل القلوب وعائشة مقيمة

بدارهــا مع النبــي والصديق، مع الحــق والوفاء، مــع المحبة والإيثار، مع الإيمان والتضحية.

عامر بن فهيرة:

ويأتي بعد ذلك دور عامر بن فهيرة الذي يمر به المؤرخون عبـرًا، برغم ما يســتحقه مــن وقفة اهتمام وتقديــر، فلم يكن آخــر الأدوار ولا أقلها شــأنًا فــي الهجرة، بـل كان حلقة قوية من حلقاتها، وعنصرًا أساســيًّا من عناصرها، اقتضاهما حسن التنظيم، واختيار الرجل المناسب في المكان المناسب.

لقــد كانت المهمة التي عهد بها إلــى عامر بن فهيرة مهمة مزدوجــة أن يرعــى غنم أبي بكر نهارًا، فإذا أمســى قصد إلى الغــار واحتلب النبي وصاحبه وذبحا ـ شــربا من لبنها وأكلا مــن لحمها ـ وأن يتبع بالغنم مســار عبد الله بن أبي بكر بعد عودتــه من غار ثور إلى مكــة فيعفي على ما تركته أقدامه من آثار في رمال الصحراء.

ومــن الواضــح أن تلــك المهمة لم تكــن بالهينة اليســيرة، المهاجــر العظيم وصاحبه في رحلتهمــا المضنية ولئن كانت أســماء وعائشــة تأتيانهما بالزاد والماء، فلقــد كان ما يقدمه عامــر تتمةً ينتفع بها أكبر الانتفــاع في مثل تلك الظروف، أما الشــق الثاني من دوره وهو طمس آثار عبد الله فتبدو أهميته إذا ذكرنا مدى شهرة العرب قديمًا بقص الأثر، وما كان يحتمل من ضرر للرسول والرسالة لو لم يكن هناك مَن يؤدي بكفاءة

هذا الدور ولا سيما أن قريشًا جُن جنونها بعد أن علمت بخروج محمد وأبي بكر من مكة فحشدت كل ما في وسعها من وسائل بشرية ومادية وغيرها مثل اقتفاء الأثر للظفر بهما، وبالتالي الحيلولة بين محمد وبين بلوغ المدينة، وتحقيق هدفه في اتخاذها دارًا ومنبرًا للإسلام بعد أن يئس من مكة.

ومن ثم كانت مهمة عامر بن فهيرة بشقيها أمرًا لا غنى عنه ولا بديل له، وكان عامر يمثل الشخصية المناسبة لتلك المهمة، فهو مولى أبي بكر وموضع ثقته، وهو مهيأ بطبيعته وبحكم ظروفه ونشأته وخبرته للقيام بهذا العمل، مما يجعله أصلح له من غيره.

ولنا أن نتساءل عما إذا كانت قلة احتفال المؤرخين ولا سيما المعاصرين منهم بدور عامر هذا رغم أهميته، وتجنبهم إلقاء الضوء على صاحبه حتى لقد خلت منه فهارس الأعلام في المؤلفات الإسلامية الحديثة، حتى إن كثيرًا من القراء يجهلون تاريخه نظرًا إلى مركزه الاجتماعي في ذلك الحين، إذ كان مولى من الموالي فانسحبت أهميته المحدودة إلى شخصه وتاريخ حياته.

وفي رأينا أن تخلف عامر بن فهيرة في مركزه الاجتماعي لم يكن الدافع الحقيقي وراء هذا الموقف الذي يستلفت النظر؛ ذلك أن الإسلام قد شن حربًا شعواء منذ ساعة نزوله على التفرقة والعبودية، بل إن المساواة في مقدمة أهدافه

الأساسية، وإنما تكمن العلة في أمور ثلاثة:

أولها: عدم تقييم الــدور الذي قام به في الهجرة في ضوء علم التنظيم.

والثاني: عدم تقدير هذا الدور على أســـاس مبادئ الإسلام في المساواة.

والثالــث: عدم تقصـــي أنباء عامر بن فهيــرة في المراجع التاريخية.

ومــن ثم رجعنا إلى كتب الســيرة فوجدنا بعض أخبار عن الرجــل متناثــرة هنا وهنــاك، ولكنها تقدم رؤيــة واضحة له، وتســفر عن شخصية لا تقل شــأنًا عن غيرها من الشخصيات التــي تلقــى إعجابًــا واهتمامًــا مــن المؤرخين لعصــر النبي والصحابة.

وأول مــا يعثر عليه من معلومــات عنه أنه ينتمي إلى الأزد، وســمي لذلك بعامــر بن فهيرة الأزدي، ونســب إلى أمه فهيرة مولاة أبي بكر، ويستفاد من ذلك أنه نشأ في بيت الصديق منذ نعومة أظفاره.

وكان عامــر راعيًا لغنم أبــي بكر، الأمر الذي أتاح له فرصة الاضطــلاع بالمهمــة التي كلفه بهــا النبــي وصاحبه، فنهض بمسئوليته، وقام بواجبه خير قيام إذ أمد المهاجرين الجليلين بحاجتهمــا من المأكل والمشــرب، وأزال من طريقهما كل أثر قديم يدل عليهما حتى غادرا الغار بعد ثلاث ليال.

ويروي ابن عبد البر في كتابه «الدرر في اختصار المغازي والسـير» أن عبـد اللـه بـن أرقط أتى رسـول اللـه وصاحبه براحلتيهما بعد خروجهمـا من الغار فركباها وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة.

ويسـتدل من هذه الرواية على أن عامرًا قد صحب الرسول وأبـا بكر في رحلتهما إلى المدينـة، وهي صحبة تضع الرجل في منزلة لا تدانيها منزلة مما يشهد له بالفضل والسبق.

ومفهـوم بداهـة أن عامر بـن فهيرة لم يكـن ليحظى بهذا الشـرف لولا ما عرف به لدى النبي والصديق من قوة العقيدة والاستعداد للتضحية والقدرة على التحمل، فضلًا عن الإخلاص والوفاء.

وفي بعض الروايات أن عامر بن فهيرة هو الذي كتب بأمر رسـول الله كتابًا لسـراقة بـن مالك، وكان مـوكلًا من قريش بمطاردة النبي وأبي بكر، ولمـا أدركهما بالصحراء في موقع يدعى (مديد) إذ اتخذ الرسـول طريق السـاحل، ورآه رسـول الله دعا عليه فسـاخت يدا فرسـه في الأرض، ثم استقل فأتبع يديـه دخان، فعلم أنها آية فناداهـم: قفوا وأنتم آمنون. فوقف رسـول الله حتى لحق بهم، ثم هَمّ به فسـاخت يدا فرسـه في الأرض، فقـال لـه: ادع الله لـي فلن ترى مني مـا تكره، فدعا فاستقلت فرسه، ورغب إلى رسول الله ﷺ أن يكتب له كتابًا ـ أي كتـاب أمن ـ فأمر أبا بكر، وقيل: عامر بن فهيرة فكتب له،

ويستدل من هذا على أن عامرًا كان قارئًا وكاتبًا، مما يستوجب إدراجه في قائمة كُتّاب رسـول الله، وتلك ميزة أخرى تضاف إلى ميزاته الأخرى التي سبق بيانها.

ولما بلغ رسـول الله المدينة ونزلها آخـى بين المهاجرين والأنصـار على الحق والمسـاواة، فآخى بين عامـر بن فهيرة والحارث بن الصمة.

وقـد حارب عامـر بن فهيرة مـع أصحاب رسـول الله من المهاجريـن والأنصـار في غزوة بـدر، وهي أعظم المشـاهد فضلًا لمن شـهدها، ومن ثم كان من البدريين أصحاب السبق والفضل في الجهاد.

وختمـت حياة عامر بن فهيرة أعظم ختام إذ استشـهد هو والحـارث بن الصمـة ـ أخوه في دار الهجـرة ـ في بعث بئر معونة، وكان رسـول الله قد أرسـلهما في وفد من المسـلمين على رأسه المنذر بن عمرو الساعدي، وقد بلغت عدتهم أربعين رجلًا، وجاء في البخاري أنهم كانوا ثلاثين، وقيل: سبعين من خيار صحابته يسمون القراء، كانوا يحطبون بالنهار ويصلون بالليل، وأمرهم رسـول الله بالمسـير إلى نجد ودعوة أهله إلى الإسلام استجابة لمطلب أبي براء عامر بن مالك الكلابي ـ حين وفـد على النبي في المدينة ـ وتعهـده بحمايتهم، وكان عامر هذا من فرسان قومه وشـجعانهم حتى عرف بملاعب الأسنة، وهو عم عامر بن الطفيل كبير النجديين وعدو المسلمين، كما

عرف عنه أنه لا يخاف من عدوان أحد عليه.

وخرج ركب أصحاب رسـول الله مـن المدينة في طريقهم عبـر الصحراء إلى نجد ومعهم كتاب منه إلى عامر بن الطفيل زعيم أهل نجد يدعوه فيه إلى الإسلام، ونزلوا موقعًا يسمى بئر معونة بين أرض بني عامر وأرض بني سليم فعسكروا فيه.

وأوفدوا مـن هناك واحدًا منهم وهو حرام بن ملحان يحمل إلـى ابن الطفيـل كتاب النبي، فلمـا أتاه لم ينظـر في كتابه، بـل وثب عليـه فقتله غيلة وغدرًا، ثم اسـتصرخ بني عامر إلى أصحاب الرسـول كـي يقتلوهم، فأبوا أن يجيبـوه، وقالوا: لن نخفـر ذمة أبي بـراء، وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا، فاسـتصرخ قبائل من بني سـليم: عصية ورعلًا وذكوان فأجابوه إلى ذلك. وخرجـوا في وفرة مـن العدد والعدة لقتال المسـلمين، وكان هؤلاء قد اسـتبطئوا صاحبهم حرامًـا، فأقبلوا في أثره، وما أن لقيتهـم عصابـة ابن الطفيل حتـى أحاطت بهم فـي رحالهم فاسـتلوا سـيوفهم ثم قاتلوا الكثرة الباغية الغادرة حتى قُتلوا عـن آخرهـم إلا كعب بن زيـد فإنهم تركوه وبـه رمق؛ فحُمل من المعركة جريحًا إلى المدينة، وعاش حتى قتل شـهيدًا يوم الخندق «رحمه الله».

ولقد سـجل أصحاب رسول الله ومنهم عامر بن فهيرة في هـذه الواقعة موقفًا من أعظم مواقف العمل الفدائي في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ العالم بأسره، فقد أبوا إلا أن يدافعوا عن

عقيدتهم في موطن لا مفر فيه من الموت، باذلين دماءهم حتى آخر قطرة في العروق ثمنًا رخيصًا في سبيل المبدأ والكرامة، راغبين أن يفوزوا بالشــهادة، ضاربيــن المثل الأعلى في إيثار الجماعة على الفرد، والتضحية في سبيل العقيدة.

ومن ذلك أن المنذر بن عمرو قائد الســرية عرض عليه ابن الطفيل وعصبته أن يبقوا على حياته قائلين: إن شــئت أمناك، فأبى وقاتلهم حتى قتل، وفي هذا الشــهيد الخالد قال رســول الله: أعنق ليموت، بمعنى أنه تقدم على الموت وهو يعرفه.

وذلــك الموقف الذي روي عــن المنذر بن محمــد بن عقبة وكان يصحب المســلمين مع عمرو بــن أمية الضمري - وكانا قــد عهد إليهما بالقيام على مطاياهم التي تركوها ترعى - أي حراســة إبلهم - إذ شــاهدا طيرًا تحوم على موضع بالصحراء فقالا والله إن لهذه الطير لشــأنًا، وسارا يستطلعان الأمر، فإذا أصحابهــم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال المنذر لعمرو: ما ترى؟ فقال: أرى أن نلحق برســول الله ﷺ فنخبره الخبر. فقال المنذر: ما كنت لأرغب عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، ثم قاتل حتى قتل.

أمــا مصرع الشــهيد عامر بن فهيرة، فيــروى أن عمرو بن أمية وهو الوحيد الذي نجا من المســلمين إذ اقتاده المجرمون أســيرًا، ثم أطلقه عامــر بن الطفيل وجز ناصيتــه وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه.

يروى أن عمرًا افتقد عامر بن فهيرة من بين القتلى، فسأل عنه عامر بن الطفيل فقال: قتله رجل من بني كلاب يقال له: جبار بن سلمى، ولما طعنه قال: فزت والله، ورفع إلى السماء علوًا فأسلم قاتله، وقال رسول الله ﷺ: «إن الملائكة وارت جثته، وأُنزِل عليين»[٦١] وحزن النبي على شهداء بئر معونة أشد الحزن، وبلغ من حزنه أنه ظل شهرًا كاملًا يدعو على قتلتهم بعد الركعة الثانية من الصبح، فكان يقول: اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم سنين كسني يوسف. اللهم عليك ببني لحيان وعضل والقارة وزعب ورعل وذكوان وعصية؛ فإنهم عصوا الله ورسوله.

ويمثل استشهاد عامر بن فهيرة والمنذر بن عمرو والمنذر بن محمد وسائر إخوانهم في تلك الفاجعة أبلغ الآيات والشواهد على قوة إيمان جنود النبي وثقتهم بالله ورسوله والمؤمنين، وصلابة إرادتهم في أداء الرسالة أو الموت دونها. تلك القيم الروحية الرفيعة التي بثها الإسلام في نفوسهم فجَرَت فيها مجرى الدماء، ولا عجب أن تصدر هذه الآيات عنهم، فهم أصحاب المُعلم الأعظم في تاريخ البشرية، وهم الطلائع الإسلامية المجاهدة التي نشرت في العالم عقيدة الطهارة والإيمان والتضحية.

وكذلك شاءت حكمة الله تعالى أن يعيش عامر بن فهيرة

---

(٦١) دلائل النبوة للبيهقي. ٣/٣٥٣ (المجلة).

بطلًا ويموت بطلًا، وأن تكون حياته القصيرة جهادًا متواصلا في سبيل الله، وآية على سمو النفس واحتمال الألم مرضاة لله ولرسوله ولصاحب رسول الله، ﵁.

ومــن اســتعراض تاريــخ حياة عامــر بن فهيــرة ورفقائه البطوليــة يمكــن أن نســتخلص أن اختياره لمباشــرة العمل الذي أُســند إليه فــي الهجرة كان وضعًا للرجل المناســب في المكان المناســب، وأن العوامل والأســباب الجذرية التى تقف خلف النجــاح الذي حققه هذا الصحابي الجليل هي التنشــئة البيئية والاجتماعية والنفســية، والتربيــة العقائدية التي أثرت في تكوين عامر بن فهيرة، وجعلت منه شخصية فدائية.

فلقد نشــأ الرجل في بيت من أكرم بيوت الإسلام، بيت بني علــى الإيمان بالله والوفاء لرســول الله، والتضحية في ســبيل الإســلام، فكان طبيعيًّا أن تغرس هذه القيم الروحية في نفسه منذ طفولته، وأن يعمقها في نفســه حسن معاملة أبي بكر له، معاملة لا تختلف عن معاملته لأبنائه، لما عرف به الصديق من رحمة بالضعفاء، وتضحية بالمــال في عتق الجواري والعبيد الذين اعتنقوا الإسلام وعانوا بسببه العذاب ألوانًا من الكافرين.

ولقــد دعاه أبــو بكر إلى الإســلام فلبى الدعــوة، وكان من أوائل المؤمنين، ثم حرره الصديق، وأولاه ثقته، فخصه بشرف معاونة رســول الله في مســيرته العظمى، مســتأمنًا إياه على سره مُسوِّيًا في ذلك بينه وبين أبنائه، فكان هذا التحرير وتلك

الثقة حافزًا له علــى المزيد من الإخلاص والتفاني، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

وقــد دعــم هذا الاتجــاه في نفــس عامر بن فهيــرة موقف الإسلام من كل المستضعفين والفقراء والكادحين المطحونين في قريش، وسياســته فــي تحرير الأرقاء، تلك السياســة التي تنبع من طبيعته بوصفه دعوة عالمية للحرية والمســاواة، كما أنه دعوة للخير والســلام، فالإســلام حق، والحــق هو الرحمة للعالمين، ومن ثم كان موالي قريش من أسرع الناس استجابة للإسلام، وكان محمد ﷺ في نظر المسلمين جميعًا وفي نظر هــؤلاء الموالي بوجه خاص نبي التحــرر من العبودية والثورة على الظلم والظالمين.

ولقد ســطر المســلمون ممن كانوا أرقــاء لقريش وحررهم الإســلام أروع صفحات التضحية والفداء في تاريخه، ويكفي أن نذكر في ذلك بلال بن رباح محاربًا وخازنًا ومؤذنًا للرسول - وكان مولى حبشيًّا نشأ في بني جمح وأسلم، وسيم صنوف العــذاب فمــا ارتــد، وأعتقه أبو بكــر الصديق، وفــي ذلك قال عمر بن الخطاب: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا».

ولا شــك في أن تلك السياســة التي انتهجها الإســلام في نظــام الــرق، ووضعها النبــي والصحابة موضــع التطبيق العملــي بتحرير الأرقــاء، وتكليفهم القيــام بأعمال لم تكن تــوكل إلا إلــى الســادة، كانت تربيــة روحية لهــم، وتدريبًا

على التصدي للمسئوليات الجسام، وتدعيمًا لبناء الدولة الإسلامية الناشئة.

ولقد نضج هؤلاء جميعًا في ظل المجتمع المثالي الذي أنشأه رسول الله في دار الهجرة، مجتمع العزة والحرية والتوحيد، مجتمع القوة، قوة الله، قوة الحق والخير والمساواة.



الفهرس